الكتـــاب الأول

العصر الأيـــوبى

المقـــدمة

«الشرق الأوسط قبيل قيام الدولة الأيوبية»

قامت الدولة العباسية فى سنة ١٣٢ هـ، وقد توالى على عرشها عدد من الخلفاء العظام أمثال المنصور والمهدى والرشيد والمأمون فحافظوا على كيانها وأملاكها وردوا عنها غارات الروم الشرقيين وأحرزوا ضدهم الانتصارات الكثيرة.

ثم خلف من بعدهم عدد من الخلفاء أقل شأنًا وأضعف شخصية، فاستبد بأمورهم والقواد، وانفصل عن الدولة فى القرن الثالث كثير من أطرافها، فقامت فى المغرب الأقصى دولة الأدراسة، وفى أفريقية دولة الأغالبة، واستقل بمصر الطولونيون ثم الإخشيديون، وباليمن الزياديون، ثم ورثت دولة الفواطم ملك الأغالبة فى نهاية القرن الثالث الهجرى ولم تلبث أن فتحت مصر وجعلتها مقر حكمها فى منتصف القرن الرابع الهجرى ثم ضمت إليها ملك اليمن وبلاد الغرب والشام.

وفى المشرق قامت الدولة الطاهرية ثم الدولتان الصفارية والسامانية، وهى دول استقلت بأطراف الدولة العباسية الشرقية خلال القرن الثالث الهجرى. وفى منتصف القرن الرابع قوى شأن البويهيين الشيعيين، ودخلوا بغداد نفسها واغتصبوا السلطة فى أيديهم، ولم يصبح للخليفة العباسى فى عهدهم إلا الصفة الرسمية والمكانة الروحية.

وفى منتصف القرن الخامس الهجرى ضعف شأن البويهيين وقضى عليهم نهائيًا السلاجقة ودخلوا بغداد سنة ٤٤٧ هـ.

وهكذا لم يكد القرن الخامس يشرف على منتصفه حتى كانت الدولة الإسلامية تبدو وكأنها جدار يريد أن ينقض، توالت عليها الانفصالات من المغرب والمشرق، وتعددت الخلافات فأصبحت ثلاثًا، فى الأندلس ومصر والعراق، يعنينا منها خلافتا المشرق فى مصر والعراق.

وهاتان كانتا قد نال منهما الضعف والإعياء فى أواخر القرن الخامس الهجرى. وكان مصيرهما ينتظر إحدى النتيجتين الحتميتين: إما حربيًا جديدًا لم تفسده المدنية، يبدل هذا الضعف، ويلم الشمل، ويوجد ما تفرق، ويقود إلى النصر. وإما غزوًا أجنبيًا يقضى على البقية الباقية من شتات هذا الملك المحطم، ويرث هذا المجد الذى كدت الأجيال فى إقامة صرحه.

وقد كان ممثلو هذين الاحتمالين يبدون حينذاك على الأفق البعيد، يمثل الأول الأتراك السلاجقة ويمثل الثانى الصليبيون، وقد كان من حسن حظ العالم الإسلامى أن سبق السلاجقة إلى الظهور، ولو أن الصليبيين تقدموا أولا لتغير وجه التاريخ.

تقدم السلاجقة أولاً ودخلوا بغداد فى سنة ٤٤٧ هـ، ثم لم يلبث أن لموا الشمل وضموا الشتات، فأخضعوا لنفوذهم بلاد الفرس والجزيرة والشام وآسيا الصغرى، وغدت أملاك الخلافة العباسية تكون دولة واحدة من جديد.

فالقوة الإسلامية الحقيقية التى كانت تسيطر على شؤون الشرق الأدنى فى أواخر القرن الخامس الهجرى وأوائل القرن السادس هى دولة السلاجقة التى كان ملكها يمتد فى ذلك الوقت من حدود الأفغان شرقًا إلى حدود الدولتين البيزنطية والفاطمية غربًا، وقد برز من ملوك السلاجقة الأوائل ثلاثة ملوك عظام، هم طغرل بك وألب أرسلان، وملك شاه، وقد قنع هؤلاء فى سياستهم الداخلية بالسلطان الدنيوى الفعلى وتركوا للخليفة العباسى كل مظاهر السيادة الإسمية الروحية، أما فى سياستهم الخارجية وخاصة مع دول الروم الشرقية فقد لجأوا إلى السيف، وجعلوه الحكم بين الدولتين، وأحرزوا ضد هذه الدولة انتصارات كثيرة متتالية، كان أهمها النصر الذى أحرزه ألب أرسلان على الإمبراطور (رومانوس) فى موقعة (ملاذ كرد) سنة ٤٦٤ هـ سنة ١٠٧٢ م، والذى انتهى بأسر الإمبراطور وهو جريح. وهكذا تقدم المسلمون لأول مرة فى أملاك الدولة البيزنطية، واستولوا على أجزاء واسعة من آسيا الصغرى وضموها لأملاكهم.

وبانقضاء عهد هؤلاء السلاطين العظام الثلاثة تفككت أوصال الدولة السلجوقية الموحدة، وتفرقت إلى دويلات صغيرة، كان أهمها دولة السلاجقة العظام فى خراسان، ودولة سلاجقة كرمان، ودولة سلاجقة العراق، ودولة سلاجقة الشام، وأخيرًا دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى.

هذه هى الظاهرة الأولى الواضحة فى تاريخ الشرق الأدنى فى أواخر القرن الخامس. وهى ظهور الأتراك السلاجقة وسيادتهم على بلدان هذا الشرق الأدنى وتقدمهم فى قلب آسيا الصغرى.

أما الظاهرة الثانية فهى ظهور الأتابكة، وأتابك، كلمة تركية تتكون من لفظين: أتا، وبك، وأتا معناها أب أو مربى، وبك معناها أمير، وأتابك لفظ كان يطلق على الأمراء أو القواد الذين كان يعهد إليهم تربية أمراء السلاجقة حديثى السن وتدريبهم على شؤون الحكم والملك. وذلك أن الدولة السلجوقية لما تفككت وحدتها وانفصلت إلى دويلات كان يليها بعض الأمراء صغار السن فكان سلاطين السلاجقة يعهدون إلى كبار أمراء جيوشهم وقوادهم بالإشراف على شؤون هؤلاء الصغار وتربيتهم على شؤون الحكم والحرب.

ثم استبد بعض هؤلاء الاتابكة بالحكم واستقلوا ببعض أجزاء الدولة، وكونوا دويلات كثيرة فى القرن السادس الهجرى ورثت بعض ملك السلاجقة. وكان أبرز هؤلاء الأتابكة عماد الدين زنكى صاحب الموصل وحلب، وابنه نور الدين محمود بن زنكى. وقد كان لهذين البطلين جهود محمودة فى مقاومة الصليبيين فى الشام، وهذا ينقلنا إلى الظاهرة الثالثة الواضحة فى تاريخ الشرق الأدنى فى ذلك الحين.

ففى أواخر القرن الخامس الهجرى، فى سنة ٤٦٠ هـ - ١٠٩٦ م أغار الصليبيون على سواحل الشام بحملتهم الأولى، واستطاعوا أن يقتطعوا هذه السواحل ويقيموا بها دويلات لاتينية أربع هى: إمارة الرها، وإمارة أنطاكية، وإمارة طرابلس، وإمارة بيت المقدس.

وقصة هذه الحروب فى مبدأها تتلخص فى أن أباطرة القسطنطينية عندما ضاقوا ذراعًا بحملات السلاجقة وانتصاراتهم أرسلوا يستغيثون بمسيحى الغرب. وأرسل هذه الصرخة الإمبراطور الكسيوس. ووصلت إلى البابا (أربان الثانى) وهو فى مجلس دينى فى (كليرمون) سنة ١٠٩٥ م، وقد نسى الإمبراطور أو تناسى بدعوته هذه الخلافات الشديدة التى كانت قائمة بين الكنيستين الشرقية والغربية وأرسل إلى البابا يدعوه إلى نصرة المسيح واسترداد بيت المقدس من السلاجقة. وانفض المجمع الدينى، ونادى البابا نداءه التاريخى. فوصل إلى كل الأسماع فى أنحاء أوربا الغربية، وألهب نار الدعوة بطرس الراهب. فتسارع الشباب من مسيحيى أوربا، وتكونت الحملة ووصلت إلى المشرق وحققت أهدافها بتكوين هذه الإمارات.

وأثار هذا النصر الصليبى نفوس المسلمين فى الشرق، ولم تكن الخلافتان العباسية والفاطمية من القوة بحيث تستطيعان رد هذا العدوان. فقام بالجهد عنهما عماد الدين زنكى، وانتصر على الصليبيين انتصارات رائعة، واستطاع أن يسترد إمارة الرها (٥٣٩ هـ - ١١٤٤ م)، وكان لإسترداد الرها صدى قوى فى أوربا كان هو الدافع القوى لإرسال الحملة الصليبية الثانية.

ووصلت هذه الحملة وقد مات زنكى وخلفه ابنه الدين محمود. فقاومها مقاومة جبارة، وأحرز فى نضاله مع الصليبيين انتصارات رائعة لا تقل شأنًا عن انتصارات أبيه.

وفى بلاد زنكى ونور الدين نشأ صلاح الدين الأيوبى وأبوه نجم الدين. وعمه أسد الدين شيركوه، فما قصة اتصال هؤلاء الأبطال بالأتابكة؟

الباب الأول

صلاح الدين

من مولده إلى أن ولى الوزارة للعاضد الفاطمى فى القاهرة

١ - نشأة صلاح الدين الأولى.

٢ - مصر بين شقى الرحى، الصراع بين قوى نور الدين وقوى الصليبيين لامتلاك مصر.

الباب الأول

صلاح الدين

من مولده إلى أن ولى الوزارة للعاضد الفاطمى فى القاهرة

- ١ -

نشأة صلاح الدين الأولى

أسرة صلاح الدين أسرة كردية من قرية دوين بالقرب من أذربيجان، وقد تولى أبوه نجم الدين دزدارية قلعة تكريت بمساعدة مواطن له يدعى بهروز كان له شأن فى حكومة بغداد.

وفى أوائل القرن السادس استنجد السلطان مسعود السلجوقى بزنكى - صاحب الموصل - ضد أخيه سلجوق شاه. غير أن زنكى هزم بنجدته عند مدينة تكريت وقد تقدم نجم الدين أيوب لمساعدة زنكى فى محنته، وقدم له السفن لعبور نهر دجلة، وكان لهذه المروءة آثار خطيرة، فقد أبعدت نجم الدين عن مركزه، لأن مساعدته لزنكى اعتبرت عصيانًا للدولة. فترك نجم الدين وأخوه أسد الدين تكريت فى سنة ٥٣٢ هـ - ١١٣٨ م، وقصدا زنكى فى الموصل، ودخلا فى خدمته. وفى الليلة التى غادر فيها نجم الدين تكريت ولد له يوسف صلاح الدين.

وقد كانت سياسة زنكى تهدف لتأليف جبهة إسلامية متحدة متكاتفة ليتمكن من مناوأة الصليبيين، ولهذا نجده يحارب إمارة دمشق واستطاع قائده نجم الدين أيوب الاستيلاء على إحدى المدن التابعة لها وهى بعلبك فى سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٩ م فعينه حاكمًا عليها ففى بعلبك قضى صلاح الدين طفولته الأولى.

وتوفى زنكى سنة ٥٤١هـ - ١١٤٦ م فانقسم ملكه بين ولديه: سيف الدين غازى فى الموصل ونور الدين محمود فى حلب، وفى أوائل عهد نور الدين حاول أصحاب دمشق استرداد بعلبك. ولم يقو حاكمها نجم الدين على مقاومتهم. وقبل أخيرًا أن يظل حاكمًا عليها مع تبعيته لدمشق نفسها مدة يشارك فى سياستها حتى صار القائد العام. ووجود نجم الدين فى دمشق ومركزه الجديد بها كان مما ساعد نور الدين على الاستيلاء عليها نهائيًا فى سنة ٥٤٩ هـ - ١١٥٤ م.

ففى دمشق قضى صلاح الدين شبابه الأول. أما الأخ الآخر أسد الدين شيركوه فقد بقى فى خدمة نور الدين فى حلب. واتصال الأخوين بنور الدين وخدمتهما له هو الذى مهد لاتصالهما واتصال صلاح الدين بمصر.

- ٢ -

مصر بين شقى الرحى
الصراع بين قوى نور الدين وقوى الصلبيين
لامتلاك مصر

حكمت الدولة الفاطمية مصر قرابة قرنين من الزمان، وكانت الدولة فى القرن الأول منها قوية مرهوبة الجانب، يحكمها خلفاء عظام، أما فى القرن الثانى فقد أصابت الدولة عوامل الضعف والاضمحلال، ويرجع هذا الضعف إلى أسباب كثيرة لعل أهمها:

تعدد الأجناس المكونة للجيش المصرى وما كان يقوم بين هذه العناصر بعضها البعض الآخر من صراع، فقد كان الجيش الفاطمى عند قدومه إلى مصر مكونًا فى جملته من المغاربة، ولما ولى الخليفة العزيز بالله الخلافة اصطنع الجند من الأتراك ومنذ عهد الحاكم بأمر الله بدأ دخول السودانيين فى الجيش، ثم كثر عددهم فى عهد المنتصر بالله - فقد كانت أمه سوداء -- ولم تكد الدولة تقارب نهايتها حتى كانت غالبية الجيش الفاطمى من الجند السودانيين.

كان معظم الخلفاء الفاطميين فى هذا القرن الثانى أطفالاً صغار أضعاف الشخصية، فاستبد بشئون الحكم دونهم الوزراء حتى عرف هذا العصر الفاطمى الثانى بعصر الوزراء العظام، ونتيجة لهذا أصبح منصب الوزارة محط أطماع قواد الجيش وكبار رجال الدولة. فقامت بين بعضهم والبعض الآخر منافسات دامية فى سبيل الوصول إلى هذا المنصب، ويصف هذه الحالة ابن واصل وصفًا قويًا فى قوله: «والحكم للوزراء من قهر بالسيف أخذها، والخلفاء بمصر تحت قهرهم. وكان الأمر كذلك من أيام المنتصر بالله».

وكان النزاع الذى قام بين شاور (الوزير) وضرغام (صاحب الباب) هو حلقة من حلقات هذه المنافسة، وقد انتهى النزاع بين الرجلين بانتصار ضرغام وتوليه الوزارة. وفر شاور إلى الشام، ولجأ إلى حاكمها نور الدين محمود بن زنكى (فى ذى الحجة ٥٥٨ هـ - ١١٦٣ م) وسأله أن يرسل معه جيشًا إلى مصر ليساعده فى نضاله مع خصمه ضرغام، وفى إعادته إلى منصب الوزراء وعرض أن يدفع له - مقابل هذه المساعدة - ثلث ايرادات مصر وأن يدين له بالولاء إن عادت إليه مقاليد الحكم والوزارة.

وتقول المراجع إن نور الدين رحب بشاور واستضافه، وأنه تردد أول الأمر فى إجابته إلى مطلبه. ولكنه لم يلبث أن وافق، ففى هذه الموافقة تحقيق لخطته التى كان يهدف من ورائها إلى توحيد الجبهة الإسلامية وتوطئة لمقاومة الخطر الصليبى والقضاء عليه.

الحملة الأولى :

وأرسل نور الدين مع شاور جيشا بقيادة قائده أسد الدين شيركوه، وصحب أسد الدين معه ابن أخيه يوسف صلاح الدين.

علم ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله إلى مصر فأصابه الفزع، إذ لم يكن الجيش الفاطمى فى ذلك الوقت فى حالة تمكنه من المقاومة أو احراز النصر، وأرسل ضرغام الرسائل إلى عمورى (أو مرى أو مورى Amalaric ملك بيت المقدس يطلب مساعدته ضد قوى نور الدين على أن يدفع له مبلغًا سنويًا من المال، وقد وافقت هذه الدعوة هوى فى نفس عمورى، فبدأ يعد جيشًا لمساعدة درغام.

غير أن أسد الدين شيركوه لم يلبث أن وصل سريعًا - وفى معينه شاور إلى مصر وانتصر على جيش ضرغام فى الشرقية، ثم على أبواب القاهرة، وتفرق عن ضرغام قواده وأعوانه. ثم قبض عليه وقتل، وأعيد شاور - نتيجة لهذا النصر - إلى دست الوزارة.

غير أن شاور كان من خلقه الغدر والخيانة، فلم يلبث أن حنث بوعده ورفض أن يدفع لشيركوه المبلغ المتفق عليه، بل وطلب إليه الانسحاب بجيشه والعودة إلى الشام، وآلم شيركوه مسلك شاور وأبى أن يستمع له، وعسكر بجيشه عند مدينة بلبيس وتحصن بأسوارها، وهنا فعل شاور ما فعله ضرغام من قبل، فلجأ إلى عمورى ملك بيت المقدس وأرسل يستنجد به، ورحب عمورى بالدعوة، وأسرع فى هذه المرة بالخروج بجيشه لأنه كان يخشى أن يملك نور الدين مصر فتصبح قوى الصليبيين وأملاكهم فى الشام محاصرة بقوى نور الدين من الشمال والجنوب.

اتجه عمورى بجيشه فى سنة ٥٥٩ هـ - ١١٦٤ م نحو مصر وحاصر أسد الدين فى بلبيس شهورًا ثلاثة، وأحس نور الدين بما يهدد جيشه فى مصر من خطر، فبدأ يضغط على أملاك الصليبيين فى الشام، وهاجم بانياس، مما جعل عمورى يفكر جديًا فى الانسحاب، واتفق أخيرًا مع شيركوه على أن ينسحبا معًا وفى وقت واحد من مصر.

الحملة الثانية:

عاد الرجلان إلى الشام وكل منهما يفكر تفكيرًا جديًا فى العودة إلى مصر ويلتمس الأسباب لهذه العودة، وأخذ أسد الدين يلح على سيده نور الدين أن يزوده بجيش أكثر عددًا وأوفر عدة للمسير إلى مصر، فقد لمس بنفسه مبلغ ما كانت تعانيه من ضعف ومبلغ ما يتهدده من خطر إذا نجح الصليبيون وسبقوا إلى امتلاكها. فان شرهم عند ذلك يستطير، وتمتد جذور دولتهم ويصبح من العسير اقتلاعها.

وكان نور الدين يؤمن بهذا كله، وكان يرى فى ضم مصر خطوة أكيدة نحو توحيد الجبهة الإسلامية فاستجاب لإلحاح أسد الدين، وزوده بجيش جديد أوفر عددًا وعدة ووصل أسد الدين بجيشه إلى أطفيح، وعبر منها إلى الجيزة، وعسكر بالبر الغربى للنيل.

وأرسل شاور إلى عمورى يستنجد به للمرة الثانية، وللمرة الثانية استجاب عمورى للدعوة وخرج مسرعًا بجيشه، ووصل إلى القاهرة عاصمة مصر وانضم جيشه إلى جيش شاور، وعسكر الجيشان عند الفسطاط على البر الشرقى مقابل جيش أسد الدين.

آلم أسد الدين أن يستعين شاور بالصليبيين أعداء الإسلام، فحاول أن ينقذ مصر من شرهم وارسل إلى شاور يعرض عليه أن يتعاونا ويكونا يدًا واحدة لمقاومة الصليبيين، وأن وجود عمورى وجيشه فى مصر فرصة مواتية من الخير أن ينتهزاها معًا للانقضاض عليه، ولكن شاور لم يكن يعنيه إلا كرسى الوزارة والإبقاء على نفوذه وسلطاته، فلم يستمع لنصيحة أسد الدين، بل قتل رسوله ورد عليه ردًا قبيحًا.

وبدأ الفريقان يستعدان للقتال، واتجه شيركوه بجيشه إلى الصعيد يجمع أمواله ليستعين بها، وعبر عمورى وشاور بجيشهما النيل وتتبعا أسد الدين. وعند قرية البابين (إحدى قرى مديرية المنيا) تقابل الفريقان واشتبكا فى القتال، وانتصر شيركوه فى هذه الموقعة - رغم قلة عدد جيشه - انتصارًا حاسمًا بفضل مهارته وخططه الحربية.

وعاد عمورى وشاور بفلول جيشهما إلى القاهرة، أما شيركوه فقد اتجه شمالاً حتى وصل إلى مدينة الإسكندرية فرحب به أهلها، فقد كانوا فى جملتهم سنة يكرهون الدولة ومذهبها الشيعى ويكرهون شاور بخاصة لاستعانته بالصليبيين أعداء الوطن والدين. وترك أسد الدين ابن أخيه صلاح الدين مع نصف الجيش فى الإسكندرية. وكر راجعًا إلى الصعيد يشرف على شؤونه ويجمع أمواله.

اتجه شاور وخلفاؤه عند ذلك إلى الاسكندرية وحاصرها برًا وبحرًا، وعانى صلاح الدين وسكان المدينة الكثير أثناء هذا الحصار، غير أن أسد الدين عندما علم بشدة الحصار لجأ إلى حيلة مضادة، فاتجه بجيشه شمالاً يريد محاصرة القاهرة ونجحت الحيلة، فقط اضطر شاور ومن معه أن يرفعوا الحصار عن الإسكندرية ويسرعوا بالعودة إلى العاصمة خشية أن ينجح أسد الدين فى الاستيلاء عليها.

وأدرك كل فريق أنه ليس من اليسير عليه أن ينفرد بأمر مصر، وبدأت المفاوضات بينهما، وكان من شروطها أن يخرجا جميعًا من مصر كما فعلاً فى المرة الأولى ورحب عمورى بهذا الاتفاق وخاصة أن الأخبار قد وصلته بأن نور الدين قد بدأ كعادته يضغط على أملاكه فى الشام، فكان يريد أن يسرع بالعودة لحماية ملكه الأصيل هناك.

وجلا الفريقان عن مصر، ولكن موقف عمورى كان يرجح هذه المرة موقف عدوه أسد الدين، لهذا عقد عمورى قبل الجلاء اتفاقية خاصة مع شاور، مؤداها أن تبقى - بعد الجلاء - حامية صليبية من جنده فى القاهرة تشرف على أبوابها للدفاع عنها إن أغار عليها مغير، وأن يتعهد شاور بأن يدفع للصليبيين مبلغ الـ (مائتى ألف دينار سنويًا).

الحملة الثالثة :

خرج الفريقان هذه المرة وفى نفسيهما كذلك شيء من مصر، فكل منهما يرى أن فى امتلاكه مصر حماية لملكه فى الشام وتحقيقا لخطته الكبرى فى الدفاع عن مبادئه وأهدافه.

بدأت الحامية الصليبية فى القاهرة تدرس الأحوال فى مصر، وسرعان ما أيقنت بضرورة أن يعود عمورى بجيشه إليها، فأرسلت إليه تحرضه وتفهمه وتدعوه. ورأى عمورى - على ضوء تجربتيه السابقتين - أن خروجه سيستدعى خروج جيش نور الدين وراءه وأنه لا قبل له وحده بالانتصار على عدوه، ففكر فى أن يستعين بحليف يسند قواه، ولم تكن الأحوال فى أوربا مهيأة لإرسال نجدة سريعة، فاتجه بنظره نحو الدولة المسيحية القريبة، وهى الدولة البيزنطية.

ومهد لهذه الخطوة بسعيه لخطبة إحدى أميرات البيت الامبراطورى. فأرسل إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل (كومنين) سفارة فى سنة ١١٦٥ م برياسة المؤرخ الصليبى وليم الصورى (William of Tyre)، وأقامت السفارة فى القسطنطينية سنتين وانتهى الأمر باختيار الأميرة مارى ابنة أخى الامبراطور لتكون زوجًا لعمورى وملكة لبيت المقدس، وانتهت المفاوضات إلى الاتفاق بين عمورى وكومنين على إرسال حملة مشتركة من الصليبيين والبيزنطيين إلى مصر لاحتلالها.

غير أن الأمور جرت على عكس ما تم عليه الاتفاق. وكان هذا من حسن حظ مصر ونور الدين، فقد قرر عمورى أن يخرج بجيشه فجأة متجها نحو مصر دون أن ينتظر تحقيق ما تم الاتفاق عليه، وقد قال المؤرخون فى تعليل هذا إن عمورى اضطر إلى الإسراع بالخروج تحت ضغط وإلحاح الحامية الموجودة فى القاهرة، ولعل قواد هذه الحامية خافوا إن تم الاتفاق أن يشاركهم البيزنطيون خيرات مصر وثرواتها.

خرج عمورى بجيشه فى أكتوبر سنة ١١٦٨م ووصل إلى بلبيس، فتحصن أهلها وراء أسوارها وقاوموه مقاومة عنيفة، ولكنه تمكن من الاستيلاء عليها، فصب جام غضبه على سكانها ونكل بهم تنكيلاً شديدًا لإصرارهم على مقاومته. واتجه عمورى بعد ذلك إلى القاهرة وعسكر بجنده عند بركة الحبش - جنوب الفسطاط.

غضب شاور وأصابه الهلع والفزع، فإن الصليبيين لم يأتوا هذه المرة أصدقاء مستجيبين لدعوته وإنما أتوا من تلقاء أنفسهم طامعين فى احتلال مصر وملكها، وفى تنفيذ هذا القضاء عليه وعلى وزارته وسلطانه. فبدأ يتخذ العدة للدفاع، والمقاومة، وأمر بإخلاء مدينة الفسطاط وإحراقها، فظلت النار تعمل فيها وفى منشآتها ومبانيها أربعة وخمسين يومًا.

وأدرك الخليفة الفاطمي العاضد خطورة الموقف، وكان هو الذى أرسل هذه المرة يستنجد بنور الدين، وبعث فى طى رسائله شعور نساء القصر. ولبى نور الدين الدعوة مسرعـًا، وأرسل جيشه بقيادة أسد الدين شيركوه للمرة الثالثة وطلب أسد الدين من ابن أخيه صلاح الدين أن يصحبه فرفض. فإنه لم يكن قد نسى بعد ما لقيه من صعاب أثناء حصار الإسكندرية فى المرة الفائتة، ولكنه قبل أخيرًا تحت إلحاح عمه وإلحاح نور الدين. ودخل جيش أسد الدين القاهرة دون مقاومة، وعند ذلك ارتد عمورى إلى بلبيس، ثم أسرع بالعودة إلى الشام فى أوائل سنة ٥٦٤ هـ - ١١٦٩ م بعد أن يئس من الاستيلاء على مصر يأسًا تامًا.

اضطرب شاور لهذه النتيجة، فقد أيقن أن نجاح أسد الدين معناه القضاء على سلطانه ولهذا بدأ يتقرب إليه، وأخذ يسعى إلى الغدر به. وقد كان الغدر شيمته وخلقه دائمـًا. وفكر فى أن يولم لأسد الدين وقواده وليمة ثم يقبض عليهم، وأسر بهذه الخطة إلى ابنه الكامل. فنهاه وقال له: «والله لإن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين» فقال شاور: «والله لإن لم نفعل هذا لنقتلن جميعًا». فقال الكامل: «صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكتها الفرنج».

وفى نفس الوقت كان أسد الدين وصلاح الدين يوجسان خيفة من شاور وغدره، وذهب شاور مرة كعادته لزيارة شيركوه فى مخيمه فقيل له إنه ذهب لزيارة قبر الإمام الشافعى، فأبدى رغبته أن يذهب لرؤيته هناك وذهب معه صلاح الدين وعز الدين جرديك - أحد قواد أسد الدين - وفى الطريق قبضا عليه وأودعاه السجن. وعلم العاضد بالنبأ، فأرسل إلى أسد الدين يطلب إليه قتل شاور. فاستجاب للأمر وحمل رأسه إلى القصر.

ولم يجد العاضد من بين رجاله من يصلح للوزارة. فاختار أسد الدين ليكون وزيره، غير أن أسد الدين لم يعمر فى الوزارة غير شهرين ثم مات، فاختار العاضد ابن أخيه صلاح الدين وزيرًا.

- ٣ -

صلاح الدين الوزير

صعوبات فى الداخل والخارج

الصعوبة الأولى :

قيل إن السبب الأكبر الذى دفع العاضد الى اختيار صلاح الدين وزيرًا أنه كان صغير السن، فرأى أنه يكون أساس قيادًا وأطوع لأمره، غير أنه كان فى جيش نور الدين الموجود فى مصر عدد من القواد الذين يكبرون صلاح الدين سنا ومكانة من أمثال: عين الدولة الياروقى، وسيف الدين على بن المشطوب، وشهاب الدين الحارمى - خال صلاح الدين - وكل منهم تطاول إلى هذا الأمر ورغب أن يكون هو الوزير، وأنف أن يختار الشاب الصغير صلاح الدين ليلى الوزارة دونه، وكادت تحدث فتنة، لولا أن تطوع لإقناعهم الفقيه عيسى الهكارى، فسعى لدى كل واحد على حدة إلى أن نجح فى إقناعهم جميعا ما عدًا عين الدولة الياروقى، فإنه رفض أن يكون أدنى مقامًا من صلاح الدين وقال: «أنا لا أخدم يوسف أبدًا»، وترك مصر وعاد إلى نور الدين.

الصعوبة الثانية :

كانت الصعوبة الثانية التى اعترضت صلاح الدين مؤامرة كان يدبرها رجل من كبار رجال القصر الفاطمى يدعى مؤتمن الخلافة جوهر، وهو زعيم الجند السودانيين وقائدهم، وكان الجند السودانيون فى ذلك الوقت هم الكثرة الغالبة فى الجيش الفاطمى: طمع مؤتمر الخلافة أن يخلف شاور، وساءه أن تنقل مقاليد الأمور إلى أيدى صلاح الدين وجيشه، فدبر أمره على أن يتصل بالصليبيين فى الشام وأن يستنجد - كما فعل شاور من قبل - بعمورى ملك بيت المقدس، فإذا أتى بجيشه وخرج صلاح الدين لمقابلته، قام هو وجنده بالثورة فى الداخل للقضاء على بقية جيش صلاح الدين وأرسل مؤتمن الخلافة خطابًا إلى عمورى مع قاصد، ولكن جند صلاح الدين قبضوا على هذا القاصد وعثروا معه على الخطاب، ووقف صلاح الدين بذلك على خيوط المؤامرة، ولكنه تجاهل مؤتمن الخلافة وأمهله قليلاً، ثم أمر بالقبض عليه وقتله.

عند ذلك غضب الجند السودانيون وثاروا - وكانوا يزيدون على خمسين الفا -- ووقعت الحرب بينهم وبين جند صلاح الدين بين القصرين، فى القاهرة، واستمر القتال يومين، وأشرف على القتال توران شاه الأخ الأكبر لصلاح الدين، فأنزل بالسودانيين هزيمة منكرة، وأشعل النار فى معظم محلاتهم ومساكنهم فى القاهرة، وفر منهم نفر عبروا إلى الجيزة، فتتبعهم توران شاه

وقضى عليهم، وبدأ صلاح الدين بعد هذا الحادث يتخذ الحيطة. فعين قائدًا من قواد جيشه هو بهاء الدين قراقوش زمامًا للقصر - أى مشرفًا على شؤونه - يقول ابن واصل: «وكان لما جرى لمؤتمن الخلافة ما جرى وقتل. وكل صلاح الدين بالقصر إلى الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى، وجعله زمام القصر مقام مؤتمن الخلافة. فترتب فى القصر، فما كان يدخل إلى القصر شىء، ولا يخرج منه شىء إلا بمرأى منه ومسمع، فضاق خناق أهل القصر بسببه».

الصعوبة الثالثة :

أما الصليبيون فى الشام فقد بدأوا يحسون الخطر الذى يهدد كيانهم منذ استولت جيوش نور الدين على مصر، وأخذوا يفكرون فى إعداد حملة صليبية شاملة لمهاجمة مصر، فأرسل عمورى سفارة إلى ملوك أوربا يستصرخهم ويستنجد بهم، غير أن هذه السفارة لم تلق نجاحًا، فقد كان ملوك أوربا فى ذلك الوقت مشغولين بمشاكلهم الخاصة وبما كان ينشب بينهم من نزاع وحروب. وحينذاك اضطر عمورى أن يلجأ مرة ثانية إلى امبراطور بيزنطة «مانويل». وتناسى مانويل الخطأ الذى أرتكبه عمورى من قبل عندما أسرع بالهجوم على مصر وحده، واستجاب لدعوته لأنه كان يحس هو كذلك الخطر الذى يهدد أملاكه نتيجة لاتساع ملك نور الدين وازدياد قوته بعد استيلائه على مصر.

وأرسل مانويل إلى عمورى أسطولاً بيزنطيًا ضخمًا يقوده اندرونيك كونستفانوس. ومر هذا الأسطول فى طريقة بجزيرة قبرص حيث انضمت إليه ستون سفينة بيزنطية أخرى، وانضمت قوى عمورى إلى قوى البيزنطيين فى الفرما. ثم اتجهوا جميعًا إلى مدينة دمياط وعسكروا أمامها.

واضطرب صلاح الدين، ولم يدر ماذا يفعل، فلو أنه خرج إلى دمياط فقد يثير رجال القصر وأتباع الفاطميين الفتن والثورات وينقضوا على بقية جنده ويستعيدوا ما كان لهم من سلطان، ولو أنه بقى فى القاهرة فقد ينجح الصليبيون فى الاستيلاء على دمياط، وأرسل إلى نور الدين يصف له هذا الموقف، يقول ابن واصل فى كتابه مفرج الكروب:

«فجهز إليه نور الدين العساكر أرسالاً، كلما تجهزت طائفة أرسلها، فسارت إليه يتلو بعضها بعضًا، ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر ودخل بلاد الفرنج. فنهبها وأغار عليها واستباحها، لتتحرك الفرنج إلى حفظ البلاد الشامية ويشتغلوا عن دمياط».

ولم يقصر صلاح الدين فى أمور الدفاع عن دمياط فأرسل قسمًا من جيشه إليها بقيادة ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه وخاله شهاب الدين الحارمى.

وهكذا تجمعت النجدات الآتية من الداخل والوافدة من الخارج. واستطاعت المدينة أن تقاوم الحصار الذى ظل خمسين يومًا مقاومة باسلة أنزلت بالمغيرين خسائر فادحة. وانضمت الطبيعة إلى مقاومة المصريين فهطلت الأمطار ليلاً ونهارًا حتى تحولت معسكرات الصليبيين وخيامهم إلى طين وماء، وحتى اضطروا إلى حفر الحفر لتتجمع فيها مياه الأمطار.

ثم بدأ الضيق يشتد بالمغيرين. فقد أخذت المؤن تتناقص عندهم وخاصة أنهم لم يحضروا معهم غير مؤونة ثلاثة أشهر، ولم يكن من اليسير عليهم الحصول على مؤن جديدة من المنطقة المحيطة بدمياط، وبدأ الجوع يفتك بالجند. وأدرك القائد البيزنطى أنه من العسير على جنوده أن يقيموا على القتال مدة طويلة من الجوع والجهد. فعرض على عمورى أن تهاجم المدينة مرة واحدة ليفرغوا من أمرها ويتقدموا إلى العاصمة. ولكن عمورى لم يوافق على هذا الاقتراح. فقد كان يخشى الهزيمة، وقد ذاق مرارتها قبل ذلك مرارًا، وغضب القائد البيزنطى، وعقد مجلسًا من قواده لبحث الموقف، وانتهى الرأى بينهم على أن ينفردوا هم بمهاجمة المدينة.

وهكذا بدأ الانقسام فى معسكر العدو. فكان البادرة الأولى من بوادر الفشل. والحقيقة أن كل حليف بدأ يشك فى الحليف الآخر، ويخشى أن ينفرد بالهجوم حتى لا يتمكن من الاستيلاء على مصر وحده. ولهذا أخذ الصليبيون يعملون على الاتصال بالمصريين. فيفسدوا على البيزنطيين خطتهم، ولأن عمورى بدأ يحس بالقلق على أملاكه فى الشام خوفًا عليها من هجمات نور الدين، فقد انتهز نور الدين الفرصة وسار - كما يقول ابن واصل - : «فيمن عنده من عساكر ودخل بلاد الافرنج، فنهبها وأغار عليها واستباحها لتتحرك الفرنج إلى حفظ البلاد الشامية ويشتغلوا عن دمياط».

وخلاصة القول أن الحملة الصليبية البيزنطية منيت بالفشل بعد هذا الانقسام. وعقد نوع من المهادنة بين الفريقين المتحاربين. وعاد الصليبيون إلى بلادهم. وكذلك فعل البيزنطيون وإن كانوا قد منوا بخسارة فادحة، فقد هبت على أسطولهم أثناء العودة عاصفة أغرقت عددًا كبيرًا من سفنهم وأهلكت الكثيرين من جندهم وبحارتهم، وكم كان ابن الأثير لاذعًا فى سخريته حين شبه هذه الحملة فى هزيمتها وانسحابها بالنعامة خرجت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين.

ولعل أهم نتائج هذه الحملة أنها ثبتت أقدام صلاح الدين فى مصر، كما كانت برهانًا قويًا على كفايته وجدارته. وبدأ نور الدين يصبح منذ هذا الفوز خطرًا حقيقيًا على قوى الصليبيين فى الشام. لأن ممتلكاته وجيوشه أصبحت كالكماشة تحيط بالصليبيين وتكاد تطبق عليهم من الشمال ومن الجنوب.

- ٤ -

قطع الخطبة للعاضد
والقضاء على الدولة الفاطمية

كان موقف صلاح الدين منذ ولى الوزارة موقفًا غريبًا ، فهو وزير لصاحب مصر الخليفة العاضد الفاطمى الشيعى، وهو فى نفس الوقت قائد لجيش نور الدين صاحب الشام السنى، فهو موزع الولاء، ومع هذا كان يتبع فى سياسته إزاء الرجلين الحكمة والتؤده، فلم يبادر العاضد بالعداوة السافرة، ولهذا لم يتوان العاضد فى تقديم المساعدة له إبان هجوم الصليبيين والبيزنطيين على دمياط، حتى لقد قال صلاح الدين نفسه - فيما رواه ابن واصل -: «ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها».

غير أن نور الدين كان يود أن يبادر صلاح الدين بالقضاء على الدولة الفاطمية وقطع الخطبة لآخر خلفائها العاضد، والخطبة للخليفة العباسى، وكان مدفوعًا فى هذا بسنيته وكرهه للشيعة، وبرغبته فى إجابة الخليفة العباسى إلى طلبه، فقد كان دائم الإلحاح عليه أن يقيم له الخطبة فى مصر، ولكن صلاح الدين كان أعرف من نور الدين بأحوال مصر، ولهذا آثر التمهل وأن يمهد الطريق قبل أن يضرب ضربته الأخيرة فقد كان رجال القصر والدولة الفاطمية غاضبين ويودون لو استطاعوا أن يقضوا على صلاح الدين ومن معه ليستعيدوا نفوذهم وسلطانهم المسلوب، وكان صلاح الدين يخشى إن هو أسرع بقطع الخطبة والقضاء على الدولة أن ينجح هؤلاء فى الثورة عليه، يقول ابن واصل فى كتابه مفرج الكروب:

«كان العادل نور الدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية، وأنه لم يبق لهم منعة، كتب إلى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد ويخطب للخليفة من بنى العباس، فاعتذر صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة لذلك لميلهم إلى العلوية، فلم يصغ نور الدين إلى قوله وأرسل إليه يلزمه ذلك إلزامًا لا فسحة فيه».

وبدأ صلاح الدين بالخطوات التمهيدية لتقليم أظافر الخليفة العاضد وقواد جيشه ورجال قصره، فأبعد هؤلاء القواد عن القاهرة واستولى على إقطاعاتهم وقصورهم، ومنحها لقواده هو ليضمن ولائهم وإخلاصهم، ثم أرسل إلى نور الدين يستأذنه فى أن يرسل إليه أباه نجم الدين وأهله، فأرسلهم إليه. وكان نجم الدين أيوب بعد وصوله خير عضد ونصيح لابنه صلاح الدين فقد كان الرجل ذا دهاء ومكر وخبرة طويلة.

وبدأ صلاح الدين كذلك بتعميم حركة إنشاء المدارس في مصر، وقد كان الهدف من حركة إنشاء المدارس منذ بدأها السلاجقة وتبعهم فيها الأتابكة هو محاربة المذهب الشيعي، والدعوة للمذهب السني، وتدريسه وقد كانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين في مصر هي المدرسة الناصرية التي أنشئت في الفسطاط لتدريس المذهب الشافعي، ثم أنشأ مدرسة أخرى لتدريس المذهب المالكي، ثم تبعه أفراد أسرته ورجال دولته، فأنشأوا مدارس أخرى كثيرة في مختلف المدن المصرية.

كذلك أقدم صلاح الدين على خطوة أخرى فعين صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي قاضيًا للقضاة فجعل القضاة في سائر الديار المصرية شافعية، يقول ابن واصل معقبًا على حركة إنشاء المدارس وعلى حركة تحويل القضاء من المذهب الشيعي إلى المذهب الشافعي: «فاشتهر مذهب الشافعية واندرس مذهب الإسماعيلية بالكلية، وانمحى أثره ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به»، وليس أبلغ من هذا القول للدلالة على قيمة هذه الخطوات التي كان يخطوها صلاح الدين في حرص وحذر للتمهيد لتحقيق رغبة الخليفة العباسي ونور الدين بقطع الخطبة للعاضد.

ولما تم له ذلك كله جمع أمراء جيشه ليستشيرهم في أمر قطع الخطبة فترددوا كثيرًا، وأخيرًا تقدم فقيه يدعى الأمير العالم وتطوع أن يبدأ هو بتنفيذ هذه الفكرة وفي يوم الجمعة الأول من المحرم سنة ٥٦٧ هـ خطب هذا الرجل ولم يدع للخليفة العاضد وإنما دعا للخليفة العباسي المستضيء بنور الله، فلم ينكر ذلك أحد عليه، فلما كانت الجمعة التالية أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للخليفة العباسي في مساجد الفسطاط والقاهرة، وبذلك انتهى آخر خيط في حياة الدولة الفاطمية.

أما الخليفة العاضد فيقال إنه كان مريضًا فلما سمع بهذا النبأ اشتد به المرض وتوفي في يوم عاشوراء أي في اليوم العاشر من المحرم من هذه السنة، وهكذا انتهت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر قرابة قرنين من الزمان، كانت مصر في خلالها امبراطورية مستقلة واسعة مترامية الأطراف ذات حضارة مجيدة مزدهرة.

البــاب الثــانى

حقيقة العلاقات
بين صلاح الدين ونور الدين

الباب الثانى

حقيقة العلاقات

بين صلاح الدين ونور الدين

أصبح صلاح الدين - بعد موت العاضد وانتهاء الدولة الفاطمية - الحاكم الوحيد لمصر ولكنه كان يحكمها باسم نور الدين، فهو قائد من قواده يقود جيشًا من جيوشه.

وقد أشار بعض المؤرخين إلى أنه قد قامت فى ذلك الوقت وحشة بين السيد والتابع، أى بين نور الدين وصلاح الدين، وكادت تنتهى بتفكير نور الدين فى الخروج بجيشه إلى مصر لإبعاد صلاح عنها، وأطول من قال بهذا الرأى هو المؤرخ عز الدين بن الأثير، وعنه نقله كثيرون من المؤرخين اللاحقين، غير أنه من الصواب أن نأخذ هذا الرأى بشىء من الحذر، لأن ابن الأثير متهم فى بعض ما يكتبه عن صلاح الدين. فهو يلتمس المناسبات أحيانًا لغمز صلاح الدين ونقده، وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين. يكون لنشأة ابن الأثير فى الموصل - موطن نور الدين والبيت الأتابكى عمومًا - أثر فى موقفه هذا.

وسنورد هنا أسباب الوحشة، كما رواها بعض المؤرخين - ثم نناقشها لنرى مبلغ ما فيها من خطأ أو صواب.

١ - يقول هؤلاء المؤرخون إن صلاح الدين خرج فى سنة ٥٦٧ هـ - ١١٧١م لمحاصرة حصن الشوبك، وعلم نور الدين فرغب فى مساعدته، وخرج من دمشق متجهًا نحو حصن الشوبك، غير أن صلاح الدين عندما علم بقرب وصول نور الدين ترك الحصن وعاد إلى مصر، وكتب إلى نور الدين معتذرًا باضطراب الأمور فيها، غير أن نور الدين لم يقبل هذا العذر وعزم على الخروج إلى مصر ليشرف بنفسه عليها وليطرد منها صلاح الدين.

٢ - وتستطرد هذه الرواية فتقول، إن صلاح الدين عندما علم بما استقر عليه رأى نور الدين جمع مجلسًا من قواده وأفراد أسرته وفى مقدمتهم أبوه نجم الدين أيوب، واستشارهم فأشار البعض بالامتناع على نور الدين ومحاربته، إلا أن نجم الدين عارض هذا الرأى. وقال إنه وابنه وجميع القواد ما هم إلا قواد لنور الدين يجب عليهم طاعته، ولكنه لم يكد يخلو بابنه صلاح الدين بعد انفضاض المجلس حتى عاتبه على تسرعه وقال له :

«أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما فى نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك من أهم أموره، وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحدًا، وكانوا يسلمونك إليه، وأما الآن بعد هذا المجلس سيكتبون إليه ويعرفونه قولى، فتكتب إليه وترسل فى هذا المعنى وتقول: أى حاجة إلى قصدى؟ نجاب يأخذنى بحبل يضعه فى عنقى، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده والأيام تندرج، والله كل يوم هو فى شأن».

وختم حديثه بقوله: «ما كان ينبغى أن تصنع ما صنعت، فإن الأخبار لا شك تبلغ نور الدين: إلا فاعلم أننا لا نسلم البلاد له، ولو أراد قصبة من قصب السكر لحاربناه عليها».

٣ - جرت بعد ذلك مفاوضات بين نور الدين وصلاح الدين، وانتهى الرأى على أن يخرجا معًا فى أوائل سنة ٥٦٩ هـ - ١١٧٣م لحصار حصن الكرك والاستيلاء «عليه» وخرج صلاح الدين وبدأ حصار الحصن. فلما بلغه قرب مجىء نور الدين رفع الحصار وعاد إلى مصر. وأرسل الفقيه عيسى الهكارى إلى نور الدين يعتذر عنه بأنه اضطر إلى العودة لمرض والده، ولاختلال الأحوال فى مصر، وأرسل معه هدايا كثيرة من مخلفات الدولة الفاطمية. وتقول الرواية إن نور الدين لم يقتنع بهذا الاعتذار وبدأ يوجس خيفة من نوايا صلاح الدين.

٤ - ويقال كذلك إن صلاح الدين عندما أحس بتغيير نور الدين وبرغبته فى المجىء إلى مصر أراد أن يبحث لنفسه ولأسرته عن ملك جديد حتى إذا حقق نور الدين رغبته وأخرجه من مصر انتقل بأسرته إلى هذا الملك الجديد، ولهذا أرسل أخاه الأكبر تورانشاه فى ٥٦٨ هـ لفتح بلاد النوبة، فوصل بجيشه إلى ابريم واستولى على قلعتها ثم عاد.

٥ - ويقولون إن تورانشاه وصف بلاد النوبة بأنها بلاد قاحلة جرداء. فعلم صلاح الدين أنها لا تصلح أن تكون مقرًا لملك جديد، ولهذا أرسل أخاه تورانشاه بجيش آخر فى سنة ٥٦٩ هـ لفتح بلاد اليمن تحقيقًا لنفس الغرض، أى ليتخذها ملكًا له إذا عزله نور الدين عن مصر.

هذه هى الآراء المختلفة التى يوردها بعض المؤرخين للدولة على قيام الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين، وهى آراء يعوزها الدليل القوى. حقيقة لقد بدأت العلاقات بين الرجين تسوء فى آخر أيام نور الدين. ولكن هذه الأسباب السالفة لم تكن هى الأسباب الحقيقية التى أدت إلى سوءها، وإنما أدى إلى سوءها سعاية بعض القواد المحيطين بنور الدين الحاقدين على صلاح الدين والذين كانوا يطمعون فى أن يلوا الأمر مكانه فى مصر من أمثال عين الدولة الياروقى، وسنحاول أن نناقش فيما يلى الآراء سالفة الذكر لنعرف وجه الحق أو الباطل فيها:

١ - كان رجوع صلاح الدين عن حصنى الشوبك والكرك أمرًا طبيعيًا، فقد كانت مصر حقيقة مضطربة الأحوال، ولم تكن الأمور قد استقرت فيها بعد، بل كان رجال الدولة الفاطمية

وأعوانها لا يزالون يدبرون المؤامرات ويسعون للقضاء على صلاح الدين وإعادة الدولة المنتهية، وحصنا الشوبك والكرك حصنان قويان يحتاج إخضاعهما والاستيلاء عليهما إلى حصار طويل الأمد.

٢ - أما قصة المجلس والحديث الخاص الذى دار بين صلاح الدين وأبيه فهى قصة أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقية، إذ كيف تسنى للمؤرخين أن يتعرفوا على الحديث الذى دار بين الأب وابنه فى خلوة خاصة لم يكن معهما فيها ثالث، وهو من الأسرار الدقيقة التى لا يصح أن ينقلها أحد الرجلين إلى ثالث حتى لا تذاع فتضيع الحكمة من إسداء النصيحة، ويؤكد هذا الظن أن ابن شداد مؤرخ صلاح الدين وأحد المقربين إليه روى عن صلاح الدين رأيًا آخر يدل على أن صلاح الدين لم يفكر يومًا فى الخروج على نور الدين أو عصيانه، بل ذكر أن فكرة العصيان راودت بعض قواده، فكان هو الذى عارضها وقاومها. قال ابن شداد فى السيرة اليوسفية:

«سمعت صلاح الدين نفسه يقول: كان بلغنا أن نور الدين يقصدنا بالديار المصرية وكانت جماعة من أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه، ونلقى عسكره، بمصاف نرده إذا تحقق قصده، وكنت (أى صلاح الدين) وحدى أخالفهم وأقول: «لا يجوز أن يقال شيء من ذلك».

٣ - أما حملة النوبة فلم يكن السبب الحقيقى لإرسالها البحث عن ملك جديد يأوى إليه صلاح الدين وأسرته إن فكر نور الدين فى إخراجهم من مصر، فقد قضى صلاح الدين سنوات قبل هذا فى مصر قائدًا ووزيرًا وواليًا، وعرف من أمورها الشىء الكثير، وعرف دون شك أن بلاد النوبة بلاد قاحلة جرداء، ولم يكن فى حاجة لإرسال حملة حربية قوية لتأتيه بهذه الحقيقة، وإنما السبب الحقيقى كان رغبته فى تطهير الصعيد وبلاد النوبة من بقايا الجند الفاطميين من السودانيين الذين فروا بعد ثورة مؤتمن الخلافة إلى الجنوب، وقد بلغ صلاح الدين فى ذلك الوقت (سنة ٥٦٨ هـ) أن هؤلاء الجند السودانيين بدأوا يتجمعون فى بلاد النوبة ويهاجمون الصعيد يريدون التقدم نحو الشمال لعزل صلاح الدين واستعادة سلطانهم والانتقام لأنفسهم وإعادة الدولة الفاطمية، قال بهذا الرأى أبو شامة فى «كتاب الروضتين» نقلاً عن مؤرخ معاصر هو ابن أبى طى، قال ابن أبى طى: «وفيها - ٥٦٨ هـ - اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة وخرجوا فى أمم عظيمة قاصدين ملك مصر، وصاروا إلى أعمال الصعيد، وصمموا على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها، وكان بها الأمير كنز الدولة، فانفذ يعلم الملك الناصر (صلاح الدين) وطلب منه نجدة، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكى، فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا منها بعد أن خرجوا أرضها، فاتبعهم الشجاع والكنز، فجرت

حرب عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم عظيم. ورجع الشجاع إلى القاهرة وأخبر بفعال العبيد وتمكنهم من بلاد الصعيد، فأنفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة (تورانشاه) فى عسكر كثيف، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة، فسار قاصدًا بلادهم وشحن مراكب كثيرة فى البحر بالرجال والميرة، وأمرها بلحافه إلى بلاد النوبة، وسار إليها ونزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام. وغنم جميع ما كان فيها.. إلخ».

٤ – أما حملة اليمن، فقد كان الدافع إلى إرسالها أسباب أخرى جادة وخطيرة وفيما يلى تفصيلها:

(أ) كان اليمن وكرًا من أوكار الشيعة، وقد قامت فيه قبل هذا دول شيعية كثيرة مثل: الدولة الصليحية، ودولة بنى زريع، ودولة بنى مهدى. وقد كانت كلها تخضع للدولة الفاطمية فى مصر وتدين لها بالولاء، وكان صلاح الدين يهدف بهذه الحيلة إلى القضاء على الشيعة فى اليمن كما قضى عليهم فى مصر. فقد كان يخشى أن تجمع فلول الشيعة وأنصار الدولة الفاطمية فى اليمن ويصبحوا مصدر خطر على دولته فى مصر حربيًا واقتصاديًا نتيجة لسيطرتهم على مدخل البحر الأحمر الجنوبى.

(ب) كان الحاكم على اليمن فى ذلك الوقت هو عبد النبى بن مهدى، وهو رجل ملتاث العقل، بنى قبة عظيمة على والده، وأمر الناس أن تحج إليها وألا تحج إلى مكة. وبلغ به الأمر أن ادعى النبوة. وفى رأى آخر أنه أدعى الألوهية، وقد قسا عبد النبى فى معاملته لأهل اليمن وأمرائه وشيوخ قبائله. ففزع بعض هؤلاء بالشكوى إلى الخليفة العباسى الذى كتب إلى صلاح الدين يطلب إليه أن يرسل جيشًا إلى اليمن لتأديب عبد النبى. قال بهذا الرأى مؤرخ يمنى هو بامخرمة فى كتابه تاريخ ثغر عدن، قال:

«خرج عبد النبى بن مهدى صاحب زبيد فى أصحابه إلى جهة أبين فحرقها وقتل أهلها، وذلك فى سنة ٥٥٩ هـ ثم رجع إلى زبيد، ثم خرج فى سنة ٥٦١ هـ فى معسكر جرار نحو المخلاف السليمانى، فقاتلهم قتالاً شديدًا، وقتل منهم طائفة غالبهم من الأشراف، وفى جملة من قتله وهاس بن غنم – أحد أمراء الأشراف وسادتهم.

ويقال أنه لما قتل الشريف وهاس خرج أحد أخوته إلى بغداد مستنصرًا بالخليفة على عبد النبى بن مهدى، فيقال إن الخليفة كتب له إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بأن يجرد فى نصرته عسكرًا لقتال ابن مهدى. فجرد الملك الناصر أخاه شمس الدولة توران شاه بن أيوب، وأن ذلك كان سبب دخول الغز اليمن، إلخ».

(جـ) تذكر المراجع جميعها أن صلاح الدين أرسل يستأذن نور الدين فى إرسال هذه الحملة فأذن له، ولم يكن من المعقول أن يأذن له نور الدين لو أنه كان يعلم أنه يريد بهذه الحملة البحث عن ملك جديد فرارًا منه.

(د) كان صلاح الدين يهدف بهذه الحملة ولا شك إلى الاستيلاء على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر لتأمين ملكه اقتصاديًا وحربيًا، فالبحر الأحمر كان الطريق الوحيد وقتذاك لنقل التجارة بين الشرق والغرب،وكانت مصر تحصل أموالاً طائلة من المكوس التى تفرض على هذه التجارة أثناء عبورها فى أرض مصر وقد بدأ إبان وزارته للعاضد بتأمين المدخل الشمالى للبحر الأحمر، باستيلائه على قلعة ايلات، وكان من الضرورى بعد هذا أن يسيطر على المدخل الجنوبى باستيلائه على اليمن ليؤمن طريق التجارة وليصون اقتصاديات مصر.

وإلى هذا كله فإن البحر الأحمر هو الطريق إلى الأراضى المقدسة الإسلامية، ورأى صلاح الدين أن من واجبه أن يشرف على مداخله الجنوبية والشمالية خشية أن يفكر الصليبيون فى التسرب بأساطيلهم إلى مياه هذه الأراضى المقدسة، فقد كان هذا من أهدافهم التى يعملون لتحقيقها، وسنرى فيما يلى محاولة من محاولاتهم فى هذا السبيل.

(هـ) المؤامرة الكبرى والأخيرة:

وفى نفس الوقت قامت فى مصر مؤامرة خطيرة تتصل اتصالاً وثيقًا بموضوع فتح اليمن، فتجمعت القوى المعارضة لصلاح الدين كلها ودبرت مؤامرة للقضاء عليه وإعادة الدولة الفاطمية، واشترك فى هذه المؤامرة أعوان الخلافة الفاطمية من رجال القصر وأمراء الجيش وجنده من السودانيين ونفر ممن قطعت مرتباتهم أو أخذت اقطاعاتهم أو أصابهم ضرر نتيجة للانقلاب والقضاء على الدولة، واتفقوا جميعا على أن يكاتبوا الإسماعيلية الحشيشية فى الشام والفرنج فى الشام وصقلية.

وكانت المؤامرة تتلخص فى أن يأتى الفرنج بأساطيلهم وجيوشهم إلى مصر، وعند وصولهم تقوم هذه العناصر المتذمرة بثورة داخلية ويتعاون الطرفان على صلاح الدين للقضاء عليه.

وعهد إلى كبير من كبار المتآمرين وهو الشاعر عمارة اليمنى أن يقوم بتحريض تورانشاه على الخروج لفتح اليمن، وكان الغرض من هذا أن تضعف قوة صلاح الدين بعد إرسال الجزء الأكبر من جيشه مع أخيه تورانشاه إلى اليمن.

وعلم صلاح الدين بنبأ المؤامرة، نقله إليه رجل دعى للاشتراك فيها هو الفقيه الواعظ زين الدين بن نجا، وقبض صلاح الدين على المتآمرين وفى مقدمتهم عمارة، وحصل على فتوى من العلماء بقتلهم فقتلهم، وبهذا فشل القسم الداخلى من المؤامرة.

أما فرنج صقلية فلم يسمعوا بهذا الفشل ووصلوا إلى الإسكندرية فى أسطول ضخم. واستطاعوا النزول إلى بر الإسكندرية وعسكروا خارج أسوارها، وهاجموا هذه الأسوار بمجانيقهم، غير أن أهل المدينة وحاميتها استطاعوا الصمود لهم وردوهم عنها مدحورين منهزمين، وبهذا فشلت المؤامرة بشقيها.

أما توران شاه فقد نجح فى فتح اليمن، وقضى على عبد النبى بن مهدى، وأصبح اليمن جزءًا من ملك بنى أيوب، وظل خاضعًا لمصر قرابة نصف قرن من الزمان، وتوالى على حكمه خلالها عدد من أفراد الأسرة الأيوبية إلى أن خلفهم على حكمه بنو رسول مماليك بنى أيوب.

هذه هى حقيقة الموقف بين نور الدين وصلاح الدين، ومنها نرى أن صلاح الدين لم يحاول الخروج على سيده أو عصيانه، وإذا كانت قد ظهرت فى الأفق بوادر من الوحشة أو سوء الظن بين الرجلين فإنما كان منشؤها - كما قلنا - الغاضبين والحاقدين على صلاح الدين من القواد المتصلين بنور الدين، وقد كان من حسن حظ صلاح الدين وحسن حظ العالم الإسلامى بوجه عام أن توفى نور الدين فى أواخر سنة ٥٦٩ هـ قبل أن تزداد العلاقات بينهما سوءًا.

أتابكة الموصل

٥٢١ هـ	عماد الدين زنكى	(الأول)	١١٢٧م
٥٤١ هـ	سيف الدين غازى	(الأول)	١١٤٦م
٥٤٤ هـ	قطب الدين مودود		١١٤٩م
٥٦٥ هـ	سيف الدين غازى	(الثانى)	١١٦٩م
٥٧٦ هـ	عز الدين مسعود	(الأول)	١١٨٠م

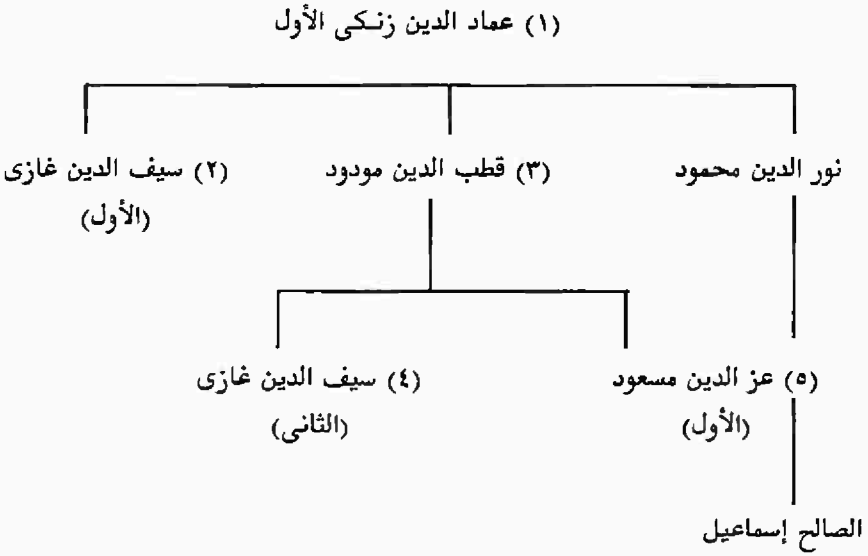

الباب الثالث

جهود صلاح الدين
لإتمام توحيد الجبهة الإسلامية

١ - الموقف بعد موت نور الدين
٢ - التنظيمات الداخلية فى مصر
٣ - الموصل ، الحلقة الأخيرة من حلقات الجبهة الإسلامية

البـاب الثالث

جهود صلاح الدين

لإتمام توحيد الجبهة الإسلامية

بين سنتي ٥٦٩ و ٥٨٢هـ

- ١ -

الموقف بعد موت نور الدين

توفى نور الدين محمود بن زنكى فى سنة ٥٦٩هـ. وخلفه على الملك ابنه الملك الصالح إسماعيل، وخطب له على منابر مصر والشام، وضربت السكة باسمه.

غير أن الصالح اسماعيل كان عند توليه الحكم طفلاً صغيرًا فى الحادية عشرة من عمره، ولهذا نرى أن كبار القواد يتحركون يريد كل منهم أن يكون الطفل الصغير فى كنفه لتكون له بالتالى السيطرة على شؤون الدولة، وقد تطلعت إلى هذه السيطرة العواصم الأربع الكبرى فى الشرق الأدنى وقتذاك، وهى: الموصل، وحلب، ودمشق، والقاهرة.

أما الموصل فقد كان فيها البيت الأتابكى، وكان صاحب الحكم منهم فى ذلك الوقت الملك سيف الدين غازى الثانى، وقد أسرع فضم إليه ما يليه من البلاد، وأعلن نفسه أميرا على الجزيرة، ثم طمع بعد ذلك أن يضم إليه حلب لتعود الأتابكية إلى ما كانت عليه أيام عماد الدين زنكى الأول.

وأما حلب فكان أكبر القواد فيها شمس الدين على بن الداية، وقد أسرع فأرسل إلى الصالح إسماعيل (وكان مقيمًا فى دمشق عند وفاة أبيه) يستدعيه إلى حلب بحجة أنها المقر الأصلى للدولة، وليضع حدًا لأطماع سيف الدين غازى صاحب الموصل والجزيرة. أما هدفه الحقيقى فهو أن يكون الصالح إسماعيل فى حلب تحت إشرافه ويكون له هو النفوذ والسلطان وانتقل الصالح فعلاً إلى حلب، غير أن قائد آخر من كبار القواد النوريين وهو سعد الدين كمشتكين انتهز الفرصة وقبض على ابن الداية، وأستبد هو بأمر الصالح.

وأما دمشق فقد كان مقدم الجيش فيها شمس الدين محمد بن المقدم. وقد انتهز الفرنج فرصة موت نور الدين واضطراب أمور الدولة وهاجموا دمشق يريدون الاستيلاء عليها، واضطر ابن

المقدم أن يهادنهم مؤقتًا على أن يدفع لهم مبلغًا من المال، وأن يطلق سراح من عنده من أسراهم، ثم أرسل إلى صلاح الدين فى مصر يطلب مساعدته.

وخلاصة القول إن هذه العواصم الشامية الثلاث كانت كل منها تنافس الأخرى فى سبيل تحقيق هدف واحد وهو أن تضم إليها الصالح إسماعيل لتكون لها السيطرة على هذا الملك الشامى كله.

أما العاصمة الرابعة القاهرة وصاحبها صلاح الدين، فقد كان لها هدف آخر أكبر وأسمى. كان صلاح الدين يريد أن يسير على نفس النهج الذى سار عليه قبله عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود، كان يريد أن يعمل على توحيد الشام ومصر فى جبهة إسلامية واحدة تستطيع أن تقف فى وجه الصليبيين وتقضى على ملكهم، وكان صلاح الدين يرى أن هذه المنافسات بين القواد هدفها المصلحة الشخصية وحدها وستنتهى بهذه الجبهة الإسلامية إلى الانقسام والتفكك. والحقيقة أنه لم يكن بين قواد نور الدين جميعًا من هو خير من صلاح الدين للقيام بهذا العبء والعمل على تحقيق هذا الهدف الخطير.

وفى سنة ٥٧٠هـ خرج صلاح الدين من مصر إلى دمشق، وأعلن أنه منذ اللحظة الأولى أنه إنما خرج لإنقاذ الصالح إسماعيل من أطماع المحيطين به، وللإشراف بنفسه على تربيته وتدبير ملكه.

ودخل صلاح الدين دمشق دون عناء، فلم يجد من أهلها أية مقاومة بل لقد رحبوا بمقدمه، ثم تركها واتجه شمالاً ونازل فى طريقه مدينة حمص. ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها، فتركها واتجه إلى حلب، وترك بها جزءًا من جيشه لمحاصرتها. ثم سار إلى حماة فاستولى عليها وعاد إلى حلب.

أدرك أمراء الجيش فى حلب فداحة الخطر الذى يهددهم. فلجأوا إلى كل القوى المحيطة بهم يستنجدون بها ويسألونها العون والمدد. لجأوا إلى سنان زعيم الحشيشية فى الشام، ولجأوا إلى أقرب القوى الصليبية اليهم، إلى الكونت ريمون صاحب طرابلس، ولجأوا إلى البيت الأتابكى فى الجزيرة، إلى سيف الدين غازى صاحب الموصل.

وقد استجابت كل قوة من هذه القوى للدعوة وإنما على طريقتها الخاصة.

أما الحشيشية فقد أرسلوا فدائيين من رجالهم وثبا بصلاح الدين محاولين قتله. ولكنهما فشلا وقبض عليهما.

وأما الكونت ريمون صاحب طرابلس فقد خرج بجيشه واتجه لحمص وحاول الاستيلاء عليها ليقطع الطريق على صلاح الدين فلا يستطيع العودة إلى ملكه فى جنوب الشام. وأدرك

صلاح الدين حيلته، فأسرع بالذهاب إلى حمص وظل على حصارها إلى أن استولى عليها، واضطر الكونت ريمون إلى تركها والعودة منهزمًا إلى ملكه.

وبعد الاستيلاء على حمص أرسل صلاح الدين إلى الخليفة العباسى فى بغداد رسالة طويلة بقلم القاضى الفاضل أشار فيها إلى جهوده الطويلة السابقة فى خدمة الخلافة العباسية السنية، ثم طلب منه أن يرسل إليه تقليدًا بتوليته على كل ما تم له من فتوح فى مصر واليمن والشام وكل البلاد النورية (راجع نص الخطاب فى كتاب الروضتين، ج١، ص٢٤١ وما بعدها).

أما سيف الدين غازى صاحب الموصل والجزيرة فإنه لم يحرك ساكنًا أول الأمر، ولكنه عندما علم بما لقيه صلاح الدين من نجاح، وبما تم على يديه من فتوح فى الشام بدأ يتحرك، لأنه خشى إذا نجح صلاح الدين فى الاستيلاء على حلب أن تكون الموصل هدفه التالى، فكون جيشًا كبيرًا وأرسله إلى حلب بقيادة أخيه عز الدين مسعود.

ترك صلاح الدين حمص واتجه شمالاً قاصدًا إلى حلب، وتقابل فى الطريق عند قرون حماة بجيوش البيت الأتابكى، وانتصر عليها، وعقد الصلح بين الفريقين، وكانت أهم شروطه أن تترك حلب وما حولها للملك الصالح إسماعيل، وأن تكون الأجزاء الواقعة جنوب حلب ملكاً لصلاح الدين.

وأخذ صلاح الدين طريقه جنوبًا عائدًا إلى دمشق، وعند مدينة حماة وصلته رسل الخليفة ومعهم التشريفات وتوقيع من الخليفة بتولية صلاح الدين السلطنة على بلاد مصر والشام.

وفى سنة ٥٧١هـ نقض المواصلة والحلبيون الهدنة، وتجدد القتال عند حلب، وانتصر صلاح الدين للمرة الثانية، واضطر سيف الدين غازى للفرار وعاد إلى مكة، وأخذ أهل حلب يستعدون للحصار، ومهد صلاح الدين للاستيلاء على حلب بأسلوبه الحربى الماهر، فرأى أن يبدأ بالحصون والقلاع المحيطة بحلب ليضعف من مقاومتها فاستولى على بزاعة ومنبج وأعزاز.

وحدث عند حصاره لقلعة أعزاز أن وثب عليه الحشيشية للمرة الثانية يريدون قتله، فضربه أحد الفداوية على رأسه ضربة كادت تقتله لولا أنه كان يلبس عدة القتال من خوذة وكزاغنه وغيرهما فحمته وجرح خده فقط إلى أن قضى رجاله على الفداوية المعتدين.

واتجه صلاح الدين بعد ذلك لحصار حلب، وظل على حصارها إلى أن وافت سنة ٥٧٢هـ، واشتد الضيق بأهلها، فطلبوا الصلح، وأجابهم صلاح الدين، واتفق على نفس الشروط السابقة وهى أن تكون حلب وأعمالها للصالح إسماعيل، وأن تكون لصلاح الدين مصر وبلاد الشام من مدينة حماة وما يليها جنوبًا.

وأثناء مفاوضات الصلح تقدمت إلى صلاح الدين ابنة صغيرة لنور الدين واستوهبته مدينة أعزاز فوهبها لها إكرامًا لذكرى والدها.

ولم ينس صلاح الدين للإسماعيلية الحشيشية فعلتهم ومحاولاتهم المتكررة لقتله، فاتجه بجيشه إلى أملاكهم وحاصر حصنهم المنيع فى مدينة مصياف، وقتل العدد الكبير منهم، وهدم الكثير من قلاعهم، وكان يصر على أن يقضي عليهم وعلى أملاكهم لولا أن تدخل فى الأمر خاله شهاب الدين الحارمى صاحب حماة، وكانوا راسلوه يطلبون وساطته لأنهم جيرانه، وشفع لهم شهاب الدين وقبل صلاح الدين الشفاعة، ورحل عنهم بعد أن انتقم لنفسه وعاد إلى دمشق، ثم غادرها إلى مصر.

- ٢ -

التنظيمات الداخلية فى مصر

أقام صلاح الدين فى مصر - بعد عودته - نحو ست سنوات، قضاها كلها فى تنظيم أمورها الداخلية، وفيما يلى بيان بهذه التنظيمات:

١ - **مكتبة القصر**: كان للفاطميين مكتبة ضخمة تضم أكثر من مائة وعشرين ألف كتاب فى مختلف العلوم والفنون، وقال بعض المؤرخين فى وصفها: «وكانت من عجائب الدنيا، ويقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى مصر»، وقد أمر صلاح الدين ببيع ما فى هذه المكتبة من كتب ونفائس، كما أهدى بعضها إلى وزيره القاضى الفاضل وكاتب إنشائه العماد الاصفهانى، ويقال فى تبرير بيعها أن معظم ما كان بها من كتب كانت كتبًا فى المذهب الشيعى وفى علوم التنجيم والغيبيات، ولكن هذا التبرير - فى رأينا - لايعفى صلاح الدين من المؤاخذة، فتلك كانت غلطة كبرى، وكان أولى به أن يحتفظ للقاهرة بمكتبتها الكبرى، وأن يتصرف فى كتب المذهب الشيعى وحدها أو يحجزها فى مكان خاص لو أراد. حقيقة لقد ألحق صلاح الدين بكل مدرسة أنشأها مكتبة صغيرة، ولكن هذه المكتبات الصغيرة لا تغنى عاصمة مصر عن المكتبة الكبرى التى كد الخلفاء الفاطميون السنوات الطوال فى تكوينها وتزويدها بآلاف الكتب النادرة.

السور والقلعة: كان صلاح الدين يعلم أن إقامته هذه فى مصر إقامة مؤقتة، وأنه لابد له من العودة إلى الشام لإتمام توحيد الجبهة الإسلامية أولاً، ولاستئناف الجهاد الأكبر ضد الصليبيين ثانيًا، ولهذا كانت معظم أعماله التنظيمية فى مصر أعمالاً عسكرية يهدف من ورائها إلى تحصين مصر - وبصفة خاصة العاصمة والثغور - وتقويتها لتكون أقدر على الدفاع عن نفسها إن فكر أحد فى الإغارة عليها أثناء غيابه عنها، ولهذا أمر ببناء سور ضخم كبير يحيط بالقاهرة والقلعة والفسطاط وقد بنى حول القاهرة قبل هذا سوران بنى أولهما جوهر الصقلى عند تأسيس المدينة، وبنى الثانى بدر الجمالى فى عهد الخليفة المستنصر بالله، وثالث الأسوار الذى بناه صلاح الدين كان أكبر من السورين السابقين واضخم منهما، لأنه كان يحيط بالعاصمة الجديدة القاهرة وضاحيتها العاصمة القديمة الفسطاط. وكان دور هذا السور كما يذكر المؤرخون ٢٩٠٣٠ ذراعًا، وبنى كله من الحجر، وكان يشرف على بنائه بهاء الدين قراقوش، وكان يبدأ شمالا عند قلعة المقس المطلة على النيل وينتهى عند النيل أيضًا جنوب مدينة الفسطاط.

وقد بدىء فى بناء السور فى سنة ٥٦٦هـ وصلاح الدين لا يزال وزيرًا للعاضد، وبعد استقلاله بمصر نشط بهاء الدين قراقوش فى الإشراف على البناء، غير أن صلاح الدين مات قبل أن يتم السور فأكمله ابن أخيه السلطان الملك الكامل محمد، ولاتزال أجزاء من هذا السور باقية حتى اليوم جنوبى أطلال الفسطاط، ولإيضاح الغرض الذى كان يهدف صلاح الدين إلى تحقيقه من بناء هذا السور ننقل هنا قول العماد الكاتب، قال:

وكان السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعهما، فقال: إن أفردت لكل واحدة سورًا احتاجت إلى جند مفرد يحميها، وإنى أرى أن أوفر عليهما سورًا واحدًا من الشاطئ إلى الشاطئ، وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم».

كذلك أراد صلاح الدين أن يبنى للقاهرة قلعة كبرى تشرف على الدفاع عنها وتكون مقرًا لحكمها، واختار أن يبنيها على نهد مرتفع من نهاد جبل المقطم لتشرف على المدينة كلها، وبدىء فى بناء هذه القلعة فى ٥٧٢هـ (١١٧٦م - ١١٧٧م) وأشرف على بنائها نفس القائد المقدام الحازم بهاء الدين قراقوش، وسخر فى بنائها عدد كبير من أسرى الفرنج والأوربيين الذين أسرهم صلاح الدين فى حروبه المختلفة، وقد زار الرحالة ابن جبير القاهرة فى سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م - ١١٨٣م) وشاهد القلعة وهى لاتزال فى دور البناء، ولم يتم بناء القلعة فى عهد صلاح الدين وإنما تم فى عهد الكامل محمد، وهو أول من اتخذها سكنًا ومقرًا للحكم.

المدرسة الناصرية عند قبر الإمام الشافعى :

وتابع صلاح الدين سياسته فى إنشاء المدارس، فبنى مدرسة جديدة ضخمة عند قبر الإمام الشافعى بالقرافة لتدريس المذهب الشافعى، وسميت هذه المدرسة فيما بعد بالمدرسة الناصرية نسبة إلى مؤسسها الملك الناصر صلاح الدين، وقد ذكرها المقريزى فى كتابه الخطط وقال إن صلاح الدين رتب بها مدرسًا يدرس الفقه على مذهب الشافعى، وجعل فيها معيدين وعدة من الطلبة، ورتب للجميع الرواتب الشهرية، وأوقف الأوقاف الكثيرة للصرف عليها.

وقد بدىء فى بناء هذه المدرسة فى سنة ٥٧٢هـ ولكن الرحالة ابن جبير زار مصر سنة ٥٧٨هـ وشاهد هذه المدرسة وهى لا تزال فى دور البناء والتأسيس، ووصفه فى رحلته بأنها: «مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء، يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته، بإزائها الحمام وإلى غير ذلك من مرافقها، والبناء فيها حتى الساعة، والنفقة عليها لا تحصى، تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول: «زد احتفالاً وتأنقًا وعلينا القيام بمؤونة ذلك كله»»، وموضع هذه المدرسة الآن جامع الإمام الشافعى.

البيمارستان :

وأمر صلاح الدين باتخاذ دار فى القصر الفاطمى بيمارستانا للمرضى، ووقف عليه وعلى المدرسة أوقافًا كثيرة، والبيمارستان هو المستشفى، وهى كلمة فارسية مكونة من لفظين «بيمار» ومعناها مريض، و«ستان» ومعناها مكان. وقد أنشأ صلاح الدين هذا البيمارستان سنة ٥٧٧هـ مكان قاعة بالقصر الكبير بناها العزيز بالله الفاطمى سنة ٣٨٤هـ.

تحصين ثغرى دمياط والاسكندرية:

كانت لصلاح الدين دائمًا عناية خاصة بهذين الثغرين الهامين فهما مصدر الخطر على مصر، وهما دائمًا محط أنظار المغيرين بوجه عام، والصليبيين بوجه خاص، وقد لمس صلاح الدين هذا الخطر بنفسه عندما هاجم الصليبيون دمياط وهو وزير للعاضد، وعندما هاجموا الإسكندرية بعد انتهاء الدولة الفاطمية واستقلالها بمصر عندما أغار عليها الأسطول الوافد من صقلية، ولهذا خرج لزيارة الثغرين مرتين، المرة الأولى عقب وصوله إلى مصر فى سنة ٥٧٢هـ والمرة الثانية قبيل خروجه الأخير إلى الشام أى فى سنة ٥٧٧هـ.

ففى شعبان من سنة ٧٥٢هـ خرج صلاح الدين من القاهرة فقصد دمياط لزيارتها، وكان فى صحبته ولداه الأفضل على، والعزيز عثمان، وكاتبه العماد الأصفهانى. فمكث بالمدينة أيامًا ثم رحل عنها إلى الإسكندرية، وقد حدد العماد الأصفهانى الغرض من هذه الزيارة بقوله: «ورأى -أى صلاح الدين - فى الحضور بالثغر المذكور ومشاهدته الاحتياط» كما ذكر أن سفن الأسطول بدمياط كانت قد خرجت للغزو، وعادت إليها بسبى كثير أثناء زيارة صلاح الدين لها، قال: «وكان به سبى كثير جلبه الأسطول».

ثم رحل صلاح الدين إلى الإسكندرية لزيارتها وليشرف بنفسه على إصلاح أسوارها وترميم حصونها وأبراجها وقلاعها، وانتهز فرصة وجوده بها وزار أسطولها فوجده خربًا قد نالت منه السنون والأحداث، فأمر بتعميره وإنشاء سفن جديدة لتقويته وأفرد له ديوانًا خاصًا أسماه (ديوان الأسطول).

ويبدو أن صلاح الدين لم يعن بإنشاء دار الصناعة وتعمير الأسطول فقط، وإنما اتخذ وسائل أخرى لتحصين الثغر حماية له من غارات الأعداء، فقد ذكر المقريزى فى خططه عند كلامه من (عمود السوارى) أنه كان حوله نحو أربعمائة عمود كسرها قراجا والى الإسكندرية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ورماها بشاطئ البحر ليوعر على العدو سلوكه إذا قدموا.

وفى سنة ٥٧٧هـ وقبل أن يغادر صلاح الدين مصر ليبدأ جهاده الأكبر ضد الصليبيين رأى أن يستوثق من مناعتها وقوة حصونها وثغورها، ففى هذه السنة أرسل رجاله لعمارة قلعة تنيس وأسوارها، وكتب إلى دمياط بترتيب المقاتلة على البرجين بها، وبترميم سور المدينة وسد ما به من ثغرات، وإتقان السلسلة التى بين البرجين، يقول المقريزى «فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار»، ويقول: «وفى شعبان من نفس السنة شرع فى إصلاح سور دمياط وبناء ما تهدم منه... كما شرع فى بناء برج جديد بالمدينة».

ولم يقنع صلاح الدين بهذه الأوامر يصدرها، وإنما رحل بنفسه فى شهر شوال إلى مدينة الإسكندرية فاشرف على حصونها وأسوارها، وتركها فى أول ذى القعدة فسار إلى دمياط وأشرف بنفسه أيضًا على ما تم من إصلاح أسوارها وتحصين قلاعها وأبراجها وسلسلتها ثم عاد إلى القاهرة.

منشآت صلاح الدين العلمية والدينية فى الإسكندرية :

وفى الرحلتين حرص صلاح الدين على زيارة عالمى الإسكندرية الكبيرين: الحافظ السلفى والحافظ أبو الطاهر بن عوف والاستماع إلى دروسهما فى الحديث وفى صحبته ولداه وكبار رجال الدولة.

وفى زيارته الأخيرة لمدينة الإسكندرية أنشأ بها مدرسة جامعة يدرس بها مختلف العلوم والفنون، وألحق بها مساكن للطبة وحمامًا يستحمون به، وبيمارستانا لعلاج من يمرض منهم، وقد وصف هذه المدرسة الجامعة وصفًا شائقًا الرحالة ابن جبير عند زيارته للإسكندرية بعد ذلك بقليل.

واتباعًا لسياسته فى القضاء على المذهب الشيعى وعلى آثار الدولة الشيعية المنتهية أمر ببناء مسجد جديد فى الإسكندرية ونقل الخطبة إليه بعد أن كانت تقام فى العصر الفاطمى فى أكبر مساجد المدينة فى ذلك العصر وهو مسجد العطارين (الجيوشى)، أما هذا المسجد الذى بناه صلاح الدين فلا نعرف عنه شيئًا فقد زال بعد ذلك من الوجود.

- ٣ -

الموصــــل

الحلقة الأخيرة من حلقات توحيد الجبهة الإسلامية

مناوشات تخللت فترة السلام :

كانت الفترة التى قضاها صلاح الدين فى مصر وتبلغ نحو الست سنوات (٥٧٢هـ-٥٧٧هـ) (١١٧٦م-١١٨١م) فترة سلام نسبى. وكانت معظم جهوده خلالها موجهة لترتيب الدولة فى مصر والشام وتنظيمها تنظيمًا داخليًا.

ومع هذا لم يكن هذا السلام الذى ساد هذه الفترة سلامًا دائمًا. لأن العدو فى الشام وفى أوربا كان يتربص بصلاح الدين وبالمسلمين الدوائر. كما أن صلاح الدين نفسه كان رجل حرب ونضال. وقد قامت بينه وبين الفرنج خلال هذه المدة سلسلة من المواقع كان الحرب فيها سجالاً ينتصرون مرة، وينتصر هو أخرى.

خرج صلاح الدين فى سنة ٥٧٣هـ للغزاة فوصل عسقلان ثم اتجه منها إلى الرملة، وقد هزم عندها هزيمة كبرى نتيجة لتهاون الجيش وعدم احتراسه أثناء عبوره نهر هناك، وقتل فى تلك الموقعة عدد من جنوده، وأسر عدد آخر من بينهم صديق عزيز عليه هو الفقيه المجاهد عيسى الهكارى. وبقى فى الأسر مدة طويلة إلى أن افتداه بعد ذلك بستين ألف دينار.

وعاد صلاح الدين بعد هزيمة الرملة إلى مصر. ثم غادرها بعد قليل إلى الشام فى سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م) واتجه إلى حصن قوى للفرنج قرب دمشق اسمه «مخاضة الأحزان». وهناك قامت بين الفريقين معركة كبرى فى سنة ٥٧٥هـ (١١٧٩م) هزم فيها الفرنج هزيمة نكراء وأسر عدد كبير من قوادهم فى مقدمتهم مقدم الداوية (فرسان المعبد). ومقدم الاسبتارية (فرسان القديس يوحنا) وأقام صلاح الدين بعد هذا النصر على حصار الحصن إلى أن فتحه ثم هدمه عن آخره وأزاله من الوجود.

النزاع بين أفراد البيت الاتابكى :

بقى الملك الصالح إسماعيل - صاحب حلب - والملك سيف الدين غازى الثانى - صاحب الموصل - محافظين على عهدهما وعلى اتفاقية سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) إلى أن أدركتهما الوفاة، فقد توفى سيف الدين غازى فى سنة ٥٧٦هـ، وخلفه أخوه عز الدين مسعود، وتوفى الملك الصالح اسماعيل فى سنة ٥٧٧هـ، غير أنه أوصى قبل وفاته أن يضم ملكه فى حلب إلى ابن

عمه عزالدين مسعود إذ لم يكن له غير طفل صغير لا يصلح للملك، ونشب نتيجة لذلك خلاف بين عز الدين وأخيه عماد الدين زنكى الثانى، ولكن الأمر لم يلبث أن استقر بينهما على أن يبقى حكم الموصل والجزيرة بيد عز الدين مسعود وأن تعطى حلب لعماد الدين.

كان صلاح الدين يرى هذا الخلاف بين أفراد البيت الأتابكى، وكان يعتقد أنه قد يكون مصدر تعب وخطر على دولته، وأنه لا يستطيع أن يبدأ جهاده الأعظم إلا إذا أمن من هذا الخطر، وإلا إذا أخضع هذا الجزء الباقى وأتم حلقات الجبهة المتحدة، لهذا غادر صلاح الدين مصر فى صيف سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م) وكان هذا آخر عهده بها، فقد قضى البقية الباقية من حياته فى جهاد مستمر ضد الصليبيين فى الشام. وحدث فى مجلس الوداع وصلاح الدين ينتظر تجمع فرق الجيش ليبدأ سيره أن أطل من بين الحضور معلم لبعض أولاده وأنشد كأنه يودع السلطان البيت المشهور:

تمتع من شميم عرار نجد　　　فما بعد العشية من عرار

وكان الرجل غير موفق فى اختياره، وانقبض صلاح الدين عند سماع البيت وتطير منه. وقد صدق الفأل فعلاً، فإن صلاح الدين لم يعد إلى القاهرة بعد ذلك، بل مات بعد جهاده الطويل فى دمشق ودفن بها.

نحو الموصل :

اتجه صلاح الدين إلى هدفه وهو الموصل، فعبر الفرات وحاصر الموصل، غير أن الموصل قاومت الحصار طويلاً، فقد كانت مدينة منيعة حصينة، فرفع صلاح الدين الحصار قليلاً، وفعل كما فعل بحلب من قبل. فاتجه إلى المدن الحصينة المحيطة بالموصل واستولى عليها الواحدة بعد الأخرى، فاستولى على مدينة سنجار، وبذلك عزل الموصل عن حلب، ثم استولى على بقية المدن المحيطة وهى آمد وتل خالد وعينتاب، وتوج انتصاراته بتملك حلب فقد أخذها من صاحبها عماد الدين زنكى الثانى على أن يعوضه عنها بعض بلاد الجزيرة، وبذلك بقيت الموصل وحدها، فاتجه إليها ولبث يحاصرها ما بين سنتى ٥٨١هـ و٥٨٢هـ (١١٨٥م-١١٨٦م) يحاصرها حينا ثم ينصرف عنها، ثم يعود إلى حصارها.

وأخيرًا وجد عز الدين مسعود ألا فائدة من النضال، فأرسل إلى صلاح الدين يطلب الصلح، وقد رفض صلاح الدين أول الأمر إجابته إلى طلبه ولكنه عاد فأجابه، وعقد الصلح بينهما على أن يعترف عز الدين بتبعيته لصلاح الدين. وأن يخطب له على منابر بلاده، وأن يضرب اسمه على السكة، وأن ينزل له عن كل ما وراء نهر الزاب من بلاد الجزيرة وهكذا تحقق على يدى صلاح الدين ذلك الحلم الذى كان يعمل على تحقيقه عماد الدين زنكى الكبير ثم ابنه نور الدين

محمود من بعده وهو توحيد البلدان الإسلامية فى جبهة واحدة تحت قيادة واحدة قبل بدء الجهاد الأكبر ضد العدو الوافد عبر البحار من أوربا يبغى استعمار هذه البلاد واستقلال أهليها.

فعلة شنعاء :

أرناط صاحب الكرك يرسل أسطولاً فى البحر الأحمر لمهاجمة الأراضى المقدسة الإسلامية:

غير أننا قبل أن نبدأ الحديث عن الجهاد الأكبر الذى توجه صلاح الدين بانتصاره فى حطين واستعادة بيت المقدس نحب أن نشير إلى حادث هام وقع فى تلك الحقبة إبان نضال صلاح الدين فى سبيل إخضاع الموصل، ففى اثناء معاركه فى شمال الشام انتهز الصليبيون الفرصة وأرسل البرنس أرناط (REGINALD OF CHATIL LION) - صاحب الكرك - جيشًا استولى ثانية على حصن أيله، ومنها أرسل أسطولاً عبر البحر الأحمر متجهًا إلى الأراضى المقدسة الإسلامية مكة والمدينة، يريد الإستيلاء على قبر النبى محمد عليه الصلاة والسلام وهدمه.

وسار الأسطول بمحاذاة الشاطىء المصرى للبحر الأحمر، ورجاله يخربون ويهاجمون ما يقع عليه من ثغور، إلى أن وصلوا ثغر عيذاب المصرى المقابل لثغر جدة، وهناك استولوا على كثير من السفن المحملة بأصناف التجارة الواردة من عدن ومن الهند، ونزل بعض الجند إلى المدينة فهاجموا قافلة كبيرة كانت آتية دون حراسة من وادى النيل، ثم أقلع هؤلاء القراصنة من عيذاب واتجهوا إلى الشواطىء العربية فأحرقوا السفن الراسية فى ينبع ميناء المدينة المنورة، ثم أغاروا على الراغب أحد الثغور المؤدية إلى مكة فأغرقوا به سفينة من سفن الحجاج.

هذه الأحداث الخطيرة أثارت شعور المسلمين، وهزت أركان العالم الإسلامى هزًا عنيفًا، وتقدم الملك العادل سيف الدين أبو بكر -- أخو صلاح الدين ونائبه على مصر وقتذاك - لإنقاذ الموقف، فأرسل الأمير حسام الدين لؤلؤ - قائد الأسطول المصرى - لتأديب هؤلاء القراصنة، وبدأ حسام الدين باستعادة ثغر أيلة، ثم وصل بأسطوله إلى ثغر الحوراء حيث قابل أسطول العدو. وحطمه تحطيمًا تامًا وقبض على كل من كان عليه من رجال، وأرسل نفرًا منهم إلى منى فنحروا بها. وحمل الباقون إلى القاهرة حيث شهروا فى الشوارع ثم قتلوا بعد ذلك. وأقسم صلاح الدين أنه لن يغفر لأرناط هذه المحاولة النكراء.

ولم يرعو أرناط عن غيه، بل لقد أقدم بعد هذا على فعلة أشد نكرًا كانت النذير والسبب المباشر لبدء القتال الأكبر بين صلاح الدين والصليبيين.

البــاب الرابع

الجهاد الأعظم

(موقعة حطين واستعادة بيت المقدس)

١ - عرض عام للموقف قبل حطين.

٢ - موقعة حطين.

٣ - تتويج الانتصار، استعادة بيت المقدس.

٤ - بعد سقوط بيت المقدس، الموقف حول صور وأنطاكية.

الباب الرابع

الجهاد الأعظم

(موقعة حطين واستعادة بيت المقدس)

- ١ -

عرض عام للموقف قبل حطين

اتسعت دولة صلاح الدين فى ذلك الحين حتى أصبحت تمتد من بلاد النوبة واليمن جنوبًا إلى بلاد الأرمن شمالاً، ومن برقة غربًا إلى الموصل وبلاد الجزيرة شرقًا. يدعم هذا الملك المتحد اعتراف الخليفة به.

وقد نجح الصليبيون من قبل فى إقامة ملك لهم فى الشام وقت أن كانت الدولة موزعة إلى إمارات ودويلات يباعد بينها الخلاف ويكاد يفنيها النزاع والتخاصم، ومع هذا فقد كان الملك الذى أقامه الصليبيون ملكًا صناعيًا مزعزع الأركان لم يرس على قواعد. ولم يقم على أسس، ولم تكن له أخيرًا أمة أو شعب أصيل صاحب وطن يدفع عنه ويحمى ذماره، بل حمل للدولة أهلها وشعبها عبر البحار من أقطار أوربا المختلفة، فهو ملك زرع فى غير بيئته، وشعب أقيم فى غير موطنه، والحرب مع هذا كانت حول الملك الصليبى دائمة دائبة تقتطع من أطرافه. والقتال حول الشعب الصليبى كان مستمرًا متلاحقًا ينتقص من أفراده، فهو دائمًا فى حاجة إلى مدد جديد يأتيه من أوربا ليعوض المفقود. وكان الحماس الدينى أول الأمر فى أوجه يدفع المسيحيين فى أوربا إلى الخروج وفدًا بعد وفد، وحملة بعد حملة، إلى الملك الصليبى الجديد لتقويته وحمايته، ولكن الزمن يمر والحماسة تخبو شيئًا فشيئًا، والحملات تقل رويدًا رويدًا. حتى أولئك الذين وفدوا إلى الشام فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى لم تكن لهم حماسة الوافدين الأول.

هذه المظاهر تدل على أن الملك الصليبى كان يسير من قوة إلى ضعف، فى حين أن المعسكر الإسلامى المجاور كان يسير من ضعف إلى قوة، فالمسلمون كانوا يحسون فى كل لحظة أن هذه بلادهم وأوطانهم وقد اغتصبت منهم فى ساعة ضعف اغتصابًا والذى يقاتل للدفاع عن وطنه يقاتل بقوة لا يعرفها من يقاتل عن ملك مغتصب. والمسلمون يقدسون البيت المقدس كما يقدسه المسيحيون تمامًا، فهو عندهم ثالث الحرمين، وإليه أسرى الله بنبيهم محمد من المسجد

الحرام، ولهم فيه أمجاد تاريخية كثيرة لا تنسى، فهم إذ يقاتلون فى سبيله لا يقلون حماسة عن أعدائهم الصليبيين.

والهزائم الأولى التى لحقت بالمسلمين قد أثارت حميتهم، وأيقظت فيهم عوامل النخوة المستكنة، وذكرتهم أمجادهم الحربية الماضية، فهبوا يعملون للثأر لشرفهم، وهذا كلها عوامل كانت تزيدهم قوة على قوة.

ولا نستطيع أن ننسى عامل القوة الاقتصادى، فالمسلمون كانت لا تزال بأيديهم الرقعة الكبرى من أراضى وبلاد الشرق الأدنى، مواردها غنية وافرة تمد الدولة بالمال وتمد الجيوش المقاتلة بالمؤونة، فى حين أن الصليبيين لم يكن تحت أيديهم إلا ما يملكون من أراضى الإمارات الثلاث الباقية ومواردها قليلة محدودة، فهم فى حاجة دائمة إلى عون ومدد من الخارج، وهم فى هذا الملك المحدد تجارتهم معطلة لأن المسلمين يحيطون بهم فى كل جانب ويقاطعونهم مقاطعة اقتصادية عنيفة.

وأخيرًا كان يدعم المعسكر الإسلامى ويزيده قوة على قوة أن أصبح جبهة واحدة متحدة على رأسها قائد شجاع محنك هو صلاح الدين، فى حين أن المعسكر الصليبى كانت تأخذه حينذاك عوامل الفرقة والانقسام، وإليك البيان:

فى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤م) مات عمورى ملك بيت المقدس فخلفه ابنه بلدوين الرابع، وكان طفلاً صغيرًا أبرص أو أجزم، وتولى الوصاية عليه اثنان:

ريموند أمير طرابلس، وإزابيلا أخته (أخت بلدوين).

وقد تزوجت إزابيلا هذه أول الأمر من وليم منتفرات، ولكنه لم يلبث أن مات بعد قليل سنة ٥٧١ هـ (١١٧٦م) بعد أن أعقب منها ولدًا هو بلدوين الخامس، ثم تزوجت إزابيلا للمرة الثانية من فارس فرنسى وسيم اسمه «جى دى لوزنيان (Guy de Lusignan)». وتروى المراجع أن جى هذا كان جميل الخلقة ولكنه كان دنىء الخلق، حتى ليقال إن أخاه قال عنه مرة:

«إذا كان هذا ملكًا فما أجدرنى أن أكون إلهًا..!!».

وقد انقسم الصليبيون قبل حطين إلى معسكرين: معسكر يضم ازابيلا وولدها وزوجها جى (وكان قد أعلن ملكًا على بيت المقدس بحكم زواجه من إزابيلا)، وكان أصحاب هذا المعسكر يرون مبادرة المسلمين بالحرب وأخذهم بالعنف أما المعسكر الثانى فكان يتزعمه ريموند صاحب طرابلس، وكان من رأيه مهادنة المسلمين ومصالحتهم.

وإبان هذا الخلاف فى الرأى ظهر فى الجو أرناط.

وهو فارس فرنسى الأصل حضر إلى الشام مع لويس السابع ملك فرنسا، وأسره نور الدين فى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠م) ثم أطلق سراحه بعد ذلك، فتزوج من وريثة حصن الكَرَك، وبذلك أصبح صاحبه والحاكم عليه.

وأرناط (وهكذا تسميه المراجع العربية) قائد شجاع ولكنه عرف بالتهور والاندفاع والغدر والخيانة، وكان إلى هذا أشد الصليبيين عداوة للمسلمين يتعطش لقتالهم، وكان يريد المسارعة إلى مبادئتهم بالقتال، وقد أشرنا من قبل إلى حملته البحرية الجريئة التى أرسلها لتهديد بلاد العرب والتى قضى عليها حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول المصرى.

- ٢ -

موقعة حطين

وقد اجترم أرناط بعد هذا جرمًا جديدًا كـان السبب المباشر والمنذر باستئناف القتال بين المسلمين والصليبيين.

كانت هناك هدنة معقودة بين الطرفين مداها أربع سنوات (٥٧٩هـ - ٥٨٣ هـ) (١١٨٤م - ١١٨٨م) فاجترأ أرناط على نقضها، ففى سنة ٥٨٢ هـ وفى حمى هذه الهدنة، كانت قافلة تجارية للمسلمين تمر بالكرك فى طريقها من مصر إلى الشام، ويقال إن أختًا أو بنتًا لصلاح الدين كانت من بين أفرادها، ولم يحترم أرناط الهدنة القائمة، وانقض على القافلة فنهبها وقتل من أفرادها من قتل وأسر من أسر، ويقال إنه تمادى فى خطيئته، وقال لأسراه وهو يعذبهم: «فليأت محمد كم ليخلصكم»، وعلم صلاح الدين بما حدث وما قاله أرناط، فغضب غضبًا شديدًا وأنذر لإن أظفره الله بأرناط ليقتلنه بيده.

كانت هذه الحادثة هى عود الثقاب الذى أشعل نار الحرب، وبدأ كل فريق يعد لها عدته، فجمع صلاح الدين جيوشه من مختلف أطراف ملكه فى دمشق وتقدم بها إلى طبرية فى أوائل سنة ٥٨٣ هـ، وتجمعت جيوش الصليبيين جميعًا بقيادة أرناط صاحب الكرك وجى ملك بيت المقدس وريموند صاحب طرابلس عند صفورية (فى منتصف الطريق بين حيفا وطبرية).

أما صلاح الدين فقد استولى بجيوشه على مدينة طبرية، وإن كانت قلعتها قد استعصت عليه فتركها مؤقتًا. وبدأ بتحصين موقعه فجعل طبرية إلى ظهره، واتجه نحو الغرب فأفسد مياه الآبار التى تقابل الصليبيين إذا هم فكروا فى الانتقال إليه.

وفى معسكر الصليبيين قام نزاع ونشأ خلاف. فقد كان ريموند صاحب طرابلس - وهو رجل متزن محنك - يرى أن تبقى جيوشهم مقيمة فى صفورية لقربها من ممتلكاتهم فى الساحل. وليدفع صلاح الدين إلى عبور هذه المسافة الصحراوية بين طبرية وصفورية. فيصل جيشه مجهدًا مكدودًا. وبذلك يسهل الانتصار عليه. أما أرناط فقد كان يرى - مدفوعًا بحمقه وتعطشه للدماء - الإسراع بالهجوم والتقدم نحو طبرية، وحجته فى ذلك أن يفاجئ صلاح الدين قبل أن تصل إليه بقية إمداداته. فيزداد بذلك قوة. وكان رأى ريموند هو الأصوب من الناحية الفنية الحربية، ولكن الغلبة كانت لرأى أرناط وكان فى، انتصار هذا الرأى نصف الهزيمة التى حاقت بجيوش الصليبيين فيما بعد. فقد كان الوقت صيفًا، وأشعة الشمس تنعكس على رمال الصحراء فتلهب الجو نارًا، وكان لهذه الحرارة أثرها فيما يحمل الجنود من أسلحة وخوذ

ودروع (وكلها من حديد) حتى كادت أجسامهم تشتعل تحت هذه الحرارة المنبعثة من عتادهم. فلما تم لهم عبور هذه المنطقة الصحراوية ووصلوا تل حطين بالقرب من طبرية كان السير قد أكدهم وأنهك قواهم، وكان العطش قد نال منهم كل منال، فتسارعوا على الآبار القريبة يريدون أن يرووا ظلماءهم، وكم كانت خيبة أملهم عندما وجدوا أن صلاح الدين قد أفسد عليهم مياه هذه الآبار.

وبدأوا المعركة بعد ذلك وهم على شدة الجهد من أثر التعب والعطش والحر جميعًا، وسرعان ما أحاطتهم جيوش صلاح الدين وحصرتهم من مختلف الجهات. وفى خلال المعركة حاول ريموند صاحب طرابلس أن يجد ثغرة يخرج منها ليحطم دائرة الحصار المضروب حولهم، وأحس بمحاولته تقى الدين عمر بن شاهنشاه – ابن أخى صلاح الدين – فدبر له مكيدة ماكرة، وتظاهر بالهزيمة، وأفسح له طريق الخروج وهو يحسب أنه بذلك قد أحرز نصرًا، فلما بعد بفرقته عن الجيش الصليبى الأصلى أسرع تقى الدين وانضم إلى جيش المسلمين، والتأمت دائرة الحصار من جديد، وألفى ريموند نفسه وجيشه وقد انقطعت الصلة بينه وبين بقية الجيش الصليبى، فآثر النجاة وأسرع بالعودة إلى مقر ملكه فى طرابلس، وكانت هذه ضربة جديدة، أصابت الجيش الصليبى وأضعفت قواه المادية وروحه المعنوية، ولم يطل بريموند العمر بعد ذلك بل مات فى مقر ملكه بعد قليل.

ودار القتال عنيفًا بين الفريقين، ولجأ المسلمون إلى حيلة جديدة ينهكون بها قوى الصليبيين، فأشعلوا النار فى الحشائش المحيطة بمعسكر العدو، فأصبح الصليبيون والنار تلفح وجوههم وأجسامهم من كل مكان. من فوقهم من تحتهم ومما يلبسون ومما يحيط بهم. فلما انقض صلاح الدين بعد ذلك عليهم بجيوشه الممتلئة حماسًا ورغبة فى الجهاد فى سبيل الله انهارت أمامه صفوف الصليبيين، وقتل منهم العدد الأكبر، ومن نجا من القتل وقع فى الأسر، حتى لقد قال ابن الأثير فى وصفه المعركة:

«وكان من يرى الأسرى لكثرتهم لا يظن هناك قتلى، فإذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى»

ومما يزيد فى قيمة النصر الحاسم الذى أحرزه البطل صلاح الدين أن هذه الموقعة قد جمعت أكبر عدد استطاع الصليبيون جمعه من إماراتهم المختلفة، كما ضمت معظم قوادهم ورؤسائهم وملوكهم، وكان من بين من وقع فى الأسر الملك جى صاحب بيت المقدس وأرناط صاحب الكرك.

وبعد الموقعة جلس صلاح الدين فى خيمته وحوله قواده، وأمر فأحضر إليه الأسيران الكبيران، وهما على جهد شديد من العطش وعنف القتال، وطلب الملك شربة من الماء فقدم إليه

صلاح الدين ماء مثلجًا، فشرب وأبقى فضلة قدمها للبرنس أرناط، ولكن صلاح الدين أسرع فقال له: «إن هذا لم يشرب الماء بإذني» يريد أنه - بشربه الماء - لم ينج من عقابه، فالعادة عند العرب أن الأسير إذا شرب من ماء عدوه أمن من عقابه.

وذكر صلاح الدين أرناط بقالته الأثيمة، وقال له: «ها أنذا أنتصر لمحمد». ومع هذا أراد أن يمنحه الفرصة لينجو من عقابه، فعرض عليه أن يعفو عنه إن هو اعتنق الإسلام، وكانت فى هذا العرض سخرية لاذعة، ولكن أرناط رفض، فاستل صلاح الدين سيفه وضربه فحل كتفه، وتمم عليه من حضر، وأوفى صلاح الدين بذلك نذره السابق أن يكون قاتله بيده إن ظفر به، عقابًا له على غدره ونكثه للعهد ونقضه للأمان والهدنة.

أما الملك فقد ارتعدت فرائصه واشتد به الذعر، وأدرك أنه لاحق بزميله، غير أن صلاح الدين التفت إلى الملك جى وهدأ من روعه قائلا: «لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه تجاوز حده فجرى عليه ما جرى».

الاستيلاء على مدن الساحل

لم يستسلم صلاح الدين للدعة والراحة بعد هذا النصر الحاسم، وإنما اتجه سريعًا بجيوشه إلى مدن الصليبيين الأخرى عند الساحل ليوجه إلى العدو هناك ضرباته القوية قبل أن يفيق من أثر الهزيمة الكبرى التى أصابته فى حطين، وتوالت انتصاراته فى سرعة عجيبة. وترجع هذه الانتصارات إلى عوامل كثيرة، منها مهارة صلاح الدين كقائد، ومنها شجاعة أفراد أسرته وقواده وتفانيهم فى القتال، ومنها هزيمة الصليبيين الساحقة فى حطين. ففى هذه الموقعة كانت قد تجمعت كل قواهم وجيوشهم وتركت مدنهم بغير مدافع.

اتجه صلاح الدين إلى مدن الساحل أولاً، وكان هدفه الأول أن يمنع أى مدد من الوصول إلى بيت المقدس، حتى إذا هاجمها سهل عليه الاستيلاء عليها. وكان هدفه الثانى تأمين مواصلاته البحرية مع مصر، فإن بقاء هذه المدن بأيدى الإفرنج يهدد دائمًا هذه المواصلات ويمنع وصول أى مدد أو مؤونة قد تأتيه من مصر.

وبدأ صلاح الدين بالاستيلاء على عكا (جمادى الأولى ٥٨٣هـ - يوليو ١١٨٧م)، وخضعت المدينة بشروط أهمها: أن يجلو عنها من يشاء من الفرنج، ومن يجلو تضيع عليه أملاكه الثابتة من بيوت وعقار وأسلحة ومواشى، ومن أراد البقاء منهم سمح له بالبقاء على أن يدفع الجزية.

وقد آثر الكثيرون منهم الجلاء خوفًا على أرواحهم وقد أعطى صلاح الدين ما كان للداوية فى عكا من أموال إلى صديقه عيسى الهكارى، ترضية له عما قاساه فى أسرهم من قبل ذلك.

وبعد عكا تساقطت مدن الساحل الواحدة بعد الأخرى أمام صلاح الدين وجيشه حتى استطاع أن يستعيد فى أيام قليلة المدن الساحلية الهامة التى كان يسيطر عليها الصليبيون من يافا جنوبًا إلى بيروت شمالاً، ولم يبق على المقاومة غير مدينة صور، فقد تجمعت فيها جيوش الصليبيين جميعًا التى خرجت من كل مدن الساحل. فتركها صلاح الدين مؤقتًا، واتجه جنوبًا فاستولى على مدينة عسقلان، وقد نصح الملك جى أهلها بالتسليم شراء لحريته، فقد كان صلاح الدين وعده بإطلاق سراحه إن سلمت عسقلان. وقد بر صلاح الدين بوعده بعد ذلك وحدد تاريخًا أطلق فيه سراح الملك.

واتجه صلاح الدين بعد ذلك إلى الداخل فاستولى على بعض حصون الداوية، وقد سلمت هذه الحصون كذلك مقابل وعد صلاح الدين بإطلاق سراح مقدم الداوية، وقد بر صلاح الدين كعادته بوعده وأطلق سراحه.

لم يبق بعد ذلك إلا الهدف الأكبر بيت المقدس. وقبل أن يتجه صلاح الدين إليه أمر قائد أسطوله فى مصر حسام الدين لؤلؤ أن يقوم بحراسة الشواطئ حتى تكون فى مأمن من هجمات العدو أثناء حصاره لبيت المقدس.

- ٣ -

تتويج الانتصار

استعادة بيت المقدس

فى أواخر جمادى الثانية سنة ٥٨٣هـ (سبتمبر سنة ١١٨٧م) اتجه صلاح الدين بجيوشه إلى هدفه وهدف المسلمين الأكبر، إلى بيت المقدس، أكبر الإمارات الصليبية. ورغب فى الاستيلاء عليها قبل أن يفيق العدو من ضربة حطين القاصمة، وقبل أن يصل إليه مدد من الخارج. وكانت المدينة قوية تحيط بها الأسوار والحصون المنيعة، فأحاطها بجيوشه وحاصرها حصارًا شديدًا ونصب المجانيق، وضربت الأسوار، وأبدى الفريقان بسالة رائعة فى القتال. ولكن لم يمض غير أسبوع واحد حتى اشتد الضيق بالصليبيين المحاصرين، فطلبوا التسليم، وتمنع صلاح الدين أول الأمر، وقال إنه يريد أن يستولى على القدس عنوة ليفعل بمن فيها من الفرنج مثلما فعلوه بالمسلمين يوم استولوا على المدينة منذ نحو تسعين عامًا.

وبعد مفاوضات اتفق على شروط التسليم، وأهمها:

- أن يدفع الفرنج الفدية عن أنفسهم (يدفع الرجل عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والطفل دينارين). فمن دفع فى خلال ٤٠ يومًا سمح له بالخروج من المدينة ومن لم يدفع أسر.

- سمح للمسيحيين الوطنيين من الشوام واليونان بالبقاء كرعايا للدولة. وكان صلاح الدين بعد هذا كريمًا غاية الكرم، نبيلاً غاية النبل، فأكرم رجال الدين المسيحى، وسمح لبطريرك المدينة بالخروج ومعه كل أمواله وأموال الكنائس وذخائرها، لم يدفع غير عشرة دنانير.

وأكرم صلاح الدين ملكة بيت المقدس فسمح لها أن تصحب معها فى خروجها كل أموالها وخدمها، وكذلك فعل مع زوجات كثير من أراء الصليبيين، ومن بينهن زوج أرناط نفسه.

وهكذا دخل صلاح الدين بيت المقدس بعد أن بقى فى أيدى الصليبيين ثمانية وثمانين عامًا، وهكذا عامل أهله وسكانه بروح كله نبل وكرم.

ولا يستطيع المؤرخ أن يمر بهذا الحادث دون أن يقف وقفة قصيرة يلقى فيها نظرة على الصورتين المتقابلتين المتعارضتين: صورة بيت المقدس عندما استولى عليه الصليبيون فى أواخر القرن الحادى عشر. وصورته عندما استعاده المسلمون فى أواخر القرن الثانى عشر. ففى الصورة الأولى نجد الصليبيون يخربون ويهدمون، ويقتلون سكان المدينة من المسلمين ويذبحونهم تذبيحًا، حتى ليعترف أحد مؤرخى الصليبيين الذى شهد الفتح أنه وصل إلى مسجد المدينة فى بحر من الدماء وصل إلى ركبتيه.

وفى الصورة الثانية نجد صلاح الدين يحمى الأرواح ويبجل رجال الدين ويكرم الخفائر من النساء، ويصون المبانى المقدسة، بل ويرممها ويأمر بإصلاحها. فى الصورة الأولى وحشية الغرب وقسوته وهمجيته، وفى الصورة الثانية سماحة الشرق ونبله وكرمه. بهذا شهد المؤرخون جميعا والغربيون منهم قبل الشرقيين منذ عصر صلاح الدين حتى اليوم، والفضل دائمًا ما شهدت به الأعداء، وإنى أكتفى بأن أنقل هنا بعض فقرات مما قاله مؤرخ إنجليزى معاصر من مؤرخى الحروب الصليبية، هو الأستاذ رانسمان:

قال فى كتابه «تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٢» عند كلامه عن سقوط بيت المقدس وعن موقف صلاح الدين وجيشه من سكان المدينة:

«كان المنتصرون معقولين وإنسانيين، فبينما خاض الفرنج عند استيلائهم على المدينة منذ ثمانية وثمانين عاما فى دماء ضحاياهم، نجد فى هذه المرة أنه ما من بناء نهب وما من إنسان أصابه أذى، وتنفيذا لأوامر صلاح الدين انبث الحراس يخفرون الطرق والأبواب ويمنعون أى اعتداء قد يصيب المسيحيين».

وقال فى نفس الصفحة:

«وتقدم نساء الفرنج اللائى افتدين أنفسهم إلى صلاح الدين والدموع تملأ عيونهن، وسألنه فى استرحام أين يستطعن الذهاب، فقد قتل أزواجهن أوباؤهن أو وقعوا فى الأسر. فكان جواب صلاح الدين أن وعدهن بأن يطلق سراح كل زوج أمير، أما الأرامل واليتامى فقد أعطى كلا منهم منحة تتناسب مع مكانتهم من حر ماله. لقد كان عفوه وعطفه مباينًا مباينة واضحة لأفعال المسيحيين الغزاة فى الحملة الصليبية الأولى».

دخل صلاح الدين المدينة يوم ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ، وهو يوم يحتفل المسلمون فيه بذكرى ليلة الإسراء التى قال فيها الله سبحانه وتعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[1]،

فكانت مناسبة طيبة، وكان فألاً جميلاً، وأقيمت الجمعة فى المسجد الأقصى لأول مرة بعد أن ظلت معطلة ثمانية وثمانين عامًا، وخطب الجمعة الفقيه محيى الدين بن زكى الدين، فألقى خطبة قوية هى من أروع ما خلفه عصر الحروب الصليبية من أدب[2] وقد أمر صلاح الدين بإصلاح ما أفسدته الحرب وما خربه الفرنج من مبانيها ومنشآتها وخاصة المسجد الأقصى، وحمل إليه المنبر الذى كان قد أمر نور الدين بصنعه ليضعه بنفسه فى المسجد بعد استيلائه على المدينة. وسار صلاح الدين فى بيت المقدس على نفس السياسة الإصلاحية التى كان يتبعها فى مدن دولته المختلفة، فأنشأ بها الكثير من المدارس، كما أنشأ بها بيمارستانا لمعالجة المرضى.

---

(١) سورة الإسراء الآية : ١.

(٢) راجع نصها فى كتاب الروضتين لأبى شامة.

- ٤ -

بعد سقوط بيت المقدس
الموقف حول صور وأنطاكية

تجمع الفرنج الذين خرجوا من المدن المفتوحة فى مدينة صور، فازدحمت بهم وكان كنراد منتفرات (وتسميه الكتب العربية المركيس) قد حصن المدينة تحصينًا قويًا، وحفر حولها خندقًا، فأصبحت كالجزيرة. وقد اتجه صلاح الدين بعد قليل لحصارها ولكنها استعصت عليه، فتركها واتجه شمالاً إلى مدينة أنطاكية (أوائل ٥٨٤ هـ - ١١٨٨م)، فاضطر صاحبها بوهمند أن يعقد معه هدنة لمدة ثمانية شهور مقابل أن يطلق بوهمند سراح من عنده من أسرى المسلمين. وكان بوهمند يريد بهذه الهدنة أن يكتسب شيئًا من الوقت عسى أن تصله بعد ذلك إمداد جديدة من أوربا.

أما صلاح الدين فقد وافق على هذه الهدنة لتحقيق غرض آخر هام، فقد كان يريد أن يفرغ للقلاع الجنوبية الداخلية للاستيلاء عليها، وقد اتجه فعلاً إلى الجنوب واستولى على كثير من القلاع الداخلية وأهمها حصنا الكرك والشوبك، وكان صلاح الدين كلما استولى على مدينة سمح لأهلها من الفرنج بالرحيل عنها، وكان هؤلاء الفرنج جميعًا يولون وجوههم شطر مدينة صور.

وقد لام المؤرخون صلاح الدين أن سمح لكل هذه الحشود الفرنجية بالتجمع فى مدينة صور بحيث أصبحت فى المستقبل عقبة كبرى استنفذت منه جهودًا كبيرة لمقاومتها وكانت مصدر خطر كبير على ملكه. ولكننا نستطيع أن نعفى صلاح الدين من كثير من هذا اللوم إذا فهمنا خططه ونواياه، فهو عندما كان يسمح لأهل المدن التى يستولى عليها بتسليمها بدون حرب وبالخروج منها إلى صور كان يشجعهم على التسليم دون مقاومة ودون حرب ودون بذل دماء من الطرفين، فكان يهدف بهذه الوسيلة إلى تحقيق أغراضه والاستيلاء على هذه المدن دون أن يضحى بأرواح رجاله، وهو بهذه الوسيلة أيضًا استطاع أن يطهر مدن الداخل من أعدائه الفرنج، وأن يحشدهم جميعًا فى مكان واحد عند الساحل. والحصون الداخلية عادة أشد خطرًا من المدن الساحلية، لأنها كالجيوب تتخلل أنحاء دولته وتكون مصدر متاعب دائمًا، أما الحصون الساحلية فمن الممكن حصارها، وهى كذلك لا تستطيع الاستمرار فى المقاومة طويلاً دون نجدات تصلها من الخارج، وأمر هذه النجدات الخارجية لا يمكن أن يعمر طويلاً وذلك لأن حماسة القوم فى أوربا تخبو وتضعف مع الزمن. ولو أن صلاح الدين قضى الوقت الطويل فى حصار مدينة صور، ولم يتجه لفتح القدس والمدن الداخلية، ثم وصلت الحملة الصليبية

الثالثة، إذن لتغير وجه التـاريخ، ولصعـب عليـه بعـد ذلـك تحقيـق كـل هـذه الأهـداف التـى حققها.

وفى ذلك الوقت، وقبل مجىء الحملة الثالثة، حل موعد إطلاق سراح الملك جى ملـك بيـت المقدس، ومقدم الداوية، فصدق صلاح الدين وعده، وأطلق سراحهما واشترط عليهما مقابل ذلـك أن لا يسهما أو يشتركا فى أى حرب ضده فى المستقبل، ولكنهما - كعادتـهما - حنثا بـالوعد وأخلا بالعهد وذهبا إلى صور، وانضما هناك إلى المقاتلين، ثم وصلت الحملـة الصليبيـة الثالثـة، فما قصتها..؟

البــاب الخامس

الحملة الصليبية الثالثة

والصراع الدامى حول عكا

الباب الخامس

الحملة الصليبية الثالثة

والصراع الدامى حول عكا

كان لسقوط القدس فى أيدى المسلمين صدى قوى فى أوربا، فاستثيرت حماسة القوم من جديد، وانتهى الأمر بارسال حملة صليبية جديدة قوية هى المعروفة بالحملة الثالثة.

كانت وفود الصليبيين وأمدادهم تأتى إلى الشام كل سنة تقريبًا للحج أو للحرب أولهما معًا. وهذه حملات صغيرة لم يعن بإحصائها أو التأريخ لها مؤرخو الحرب الصليبية وإنما هم عنوا بالتأريخ للحملات الكبرى التى أتت نتيجة لأحداث كبرى والتى تركت آثارا خطيرة، فبعد سقوط الرها - الإمارة الصليبية الأولى - فى أيدى عماد زنكى استثيرت حماسة الناس فى أوربا، وكان رد الفعل إرسال الحملة الصليبية الثانية. وبعد سقوط بيت المقدس الإمارة الصليبية الثانية - فى أيدى صلاح الدين استثيرت حماسة الصليبيين فى أوربا، وكان رد الفعل إرسال الحملة الصليبية الثالثة، ولكننا نلاحظ أن هذه الحملة الثالثة كان يسيرها ويوجهها عوامل سياسية واضحة، فلم يعد العامل الدينى هو العامل الوحيد المؤثر فى الحركة الصليبية، ولفهم هذا نلقى نظرة سريعة على هذه الحملة من حيث الدوافع التى دفعت إلى خروجها، ومن حيث موقف القادة الذين كانوا يتولون قيادتها.

كان يقود هذه الحملة ثلاثة من كبار ملوك أوربا فى ذلك الوقت:

- فردريك بربروسا إمبراطور الدولة الرومانية (وتسميه الكتب العربية ملك الألمان).
- ورتشارد قلب الأسد، ملك إنجلترا (وتسميه الكتب العربية: الانكتير أو الإنكتار أو الانكلتير)
- وفيليب أوجست ملك فرنسا (وتسميه المراجع العربية الفرنسيس)

كان فردريك إمبراطورا لدولة واسعة تضم ألمانيا وبلاد الرين وإيطاليا، وكان يشغله فى بلاده وقتئذاك نضالان: نضال ضد الأمراء الإقطاعيين للحد من سلطانهم، ونضال ضد البابا، وقد نجح فردريك إلى حد كبير فى نضاله الأول، وقوى - نتيجة لنجاحه - شأن الحكومة المركزية، وأصبح كبار الأمراء الإقطاعيين يدينون له بالولاء. أما النضال الثانى فقد كانت الحرب فيه سجالاً. وأخيرًا اتفق الطرفان - الإمبراطور والبابا - على عقد حلف دفاعى بينهما، أى أن يتعاونا دائمًا ضد من يجرؤ على معاداتهما، وقد كان الإسلام فى ذلك الوقت يعتبر أكبر عدو

لكل منهما، لهذا انضم فردريك إلى الحملة الثالثة يريد بذلك أن يعلو شأنه بين ملوك أوربا الكبار بمساهمته فى هذه الحروب الدينية، وقد رحب البابا باشتراكه ليشغل قوى الإمبراطورية فى حرب دينية هو دائمًا الرئيس الأعلى لها، فاشتراك الإمبراطور فى هذه الحرب الدينية فيه اعتراف ضمنى بخضوعه وتبعية للبابا. وواضح هنا أن الدافع لم يكن دينيًا وحسب، بل أصبحت العوامل السياسية تؤثر وتدفع وتوجه.

أما الانكتار رتشارد قلب الأسد فهو من سلالة النورمان أبناء وليم الفاتح ومن سلالة أمراء أنجر الفرنسيين. وقد كان النضال وقتذاك على أشده بين ملوك إنجلترا وملوك فرنسا بشأن كثير من دويلات فرنسا، وكل منهما يدعيها لنفسه. وكانت كفة فرنسا قد بدأت ترجح، وأخذت إنجلترا تنكمش داخل جزيرتها لتفرغ لتكوين قومية إنجليزية جديدة. وكان رتشارد ملكًا شجاعًا ولكنه لم يكن قديسًا، فهو عندما فكر فى الخروج فى هذه الحملة الثالثة لم يكن متأثرًا بالحماس الدينى. ولم يكن يهدف إلى تحقيق غرض دينى، وإنما هو خرج يلتمس المجد والنصر فى بلاد الشرق.

وكان القائد الثالث من قواد الحملة ملك فرنسا فيليب أوجست وينحدر من سلالة الأسرة الفرنسية (هيوكابيه) التى قامت على أنقاض دولة أبناء شارلمان. وقد شغلت هذه الأسرة أول الأمر بمحاربة أمراء الإقطاع. وحقق أفرادها نصرًا فى هذا الميدان. فقويت الحكومة المركزية وزاد نفوذ الملوك. وانتصار ملك فرنسا على أمرائه الإقطاعيين وعلى ملوك إنجلترا جعل له مكانًا ممتازًا فأصبح يعتبر واحدًا من ملوك أوربا الكبار، فعندما خرجت الحملة الثالثة، واشترك فيها فردريك ورتشارد، رأى فيليب أنه لابد له أن يشترك هو أيضًا لأنه ملك عظيم، ولا يصح أن يتخلف عن حرب اشترك فيها أنداده من الملوك العظام، وواضح هنا كذلك أن الدافع لم يكن دينيا وحسب، بل كانت هناك عوامل سياسية تدفع وتؤثر وتوجه.

حصار عكا

كان النضال طول مدة بقاء هذه الحملة مركزًا كله حول عكا، فقد تجمع الصليبيون في مدينة صور، وانضمت إليهم بعض البعوث الوافدة من أوربا، واتجهوا إلى عكا يريدون الاستيلاء عليها ليكون لهم على البحر المتوسط ميناءان قويان.

خرجت جيوش الصليبيين بقيادة الملك جي والمركيس كنراد فحاصرت مدينة عكا، وأتم الحصار من ناحية البحر أسطول الفرنج، فكان يمدهم بالإمدادات ويمنع وصولها إلى المسلمين المحاصرين داخل المدينة. وحول قوى الإفرنج في البر وقفت قوى المسلمين. وهكذا اجتمعت في شعبان سنة ٥٨٥هـ (أغسطس سنة ١١٨٩م) جميع قوى الطرفين حول عكا واستمر النضال بينهما نحو عامين إلى أن وصل فيليب أوجست ثم رتشارد قلب الأسد، فرجحت كفة الفرنج، وخضعت المدينة بعد مقاومة عنيفة وسلمت في جمادى الآخرة ٥٨٧هـ (يوليو ١١٩١م).

وليسهل فهم الموضوع سنقسم الحصار إلى أدوار:

الدور الأول

من بدء الحصار إلى شتاء ٥٨٥ هـ (١١٨٩م)

حاصر الفرنج المدينة بجيوش كثيفة، وبذل صلاح الدين جهدًا كبيرًا لفتح ثغرة في نطاق هذا الحصار لينفذ منها الجند والمدد إلى المدينة، ونجح في تحقيق هذا الغرض بعد مشاق كبيرة، ولكن الفرنج بذلوا جهدًا آخر لإتمام الحصار ثانية وسد هذه الثغرة، ودارت في سبيل هذا معارك عنيفة بين الجيشين انتصر فيها المسلمون، وجمع صلاح الدين - بعد هذا النصر - مجلسًا من قواده للتشاور، وكان من رأيه أن يتابع القتال بعد هذه الضربة، حتى لا يترك للعدو فرصة لاستعادة قواه، ولكن أمراء صلاح الدين آثروا الراحة بعد قتال دام خمسين يومًا متصلة، واضطر أن ينزل على رأيهم، وكان رأيًا خاطئًا، فقد أفاد الفرنج من هذه الراحة فلموا شعثهم وقووا ضعفهم، ولم تكد تنتهي مدة الراحة حتى حل فصل الشتاء، وفيه توقفت أيضًا أعمال القتال، وفي ذلك الوقت ترددت الأخبار بقرب وصول الإمبراطور فردريك.

الدور الثانى

من ربيع ٥٨٦هـ (١١٩٠م) إلى أول شتاء نفس السنة

بعد أن انتهى شتاء السنة الماضية، بدأ صلاح الدين يعد العدة لاستئناف القتال فاستدعى الجيوش من كل أطراف الدولة، وتتابع وصولها، وأمد الجيش بعدد كبير من النفاطين والزراقين، وفى أثناء هذه الدور تقدم إلى صلاح الدين شاب دمشقى بسائل اخترعه لحرق الدبابات المقاتلة، وقد استعمل فعلاً هذا السائل وأحرق عددًا من دبابات العدو الضخمة التى كانت معدة للاستيلاء على أسوار المدينة. وفى هذه المرحلة وصل أسطول مصر يحمل كميات كبيرة من المؤونة والإمدادات، ولم يتمكن من الدخول إلى المدينة إلا بعد أن بذل صلاح الدين فى البر جهودًا كبيرة لشغل قوى العدو، وقامت معارك برية وبحرية خطيرة إلى أن نجح الأسطول فى دخول عكا محملاً بالمؤن والمحاربين.

وكان صلاح الدين فى ذلك الحين يريد أن يضرب العدو ضربة قوية قبل أن يصل الإمبراطور فردريك بجيشه فتزيد قوة العدو، ولكن القدر كفاه شره. فقد أتى فردريك بطريق البر عبر بلاد المجر والبلقان ووصل بجيشه إلى القسطنطينية فى أراضى الدولة البيزنطية، ولكن إمبراطور بيزنطة لم يرحب بمقدم هذا الجيش الصليبى كما رحب بجنود الحملة الأولى، بل لقد كان يخشى جنود فردريك الذين نهبوا بلاده وخربوها أثناء مرورهم بها، ولم تكن الثقة متبادلة بين الإمبراطورين، بل لقد كان إمبراطور بيزنطة يكره فردريك، وخير شاهد على هذا أن إمبراطور بيزنطة أرسل فى ذلك الوقت خطابًا وديًا إلى صلاح الدين يعلن فيه صداقته ويعلن فيه كرهه للألمان.

وعبر فردريك إلى آسيا الصغرى فلقى جيشه صعابًا كثيرة مما أصابهم من مرض وجوع وتعب ومن مقاتلة فرسان سلاجقة الروم، وأخيرًا مات فردريك أثناء سباحته فى نهر هناك.

وسمع صلاح الدين بقرب وصول فردريك وجيشه، فأرسل جزءًا من جيشه إلى شمال الشام للوقوف فى سبيله ومنعه من التقدم جنوبًا، وشعر الفرنج بهذه الحركة فبادروا بمهاجمة الجناح الناقص فى جيش صلاح الدين، وهو الميمنة، وكان يتولى قيادتها الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين، وقامت معركة عنيفة، عرفت فيما بعد باسم المعركة العادلية، واستمرت أكثر النهار، وكتب النصر فى نهايته لجيش صلاح الدين، وقد أثر هذا النصر وما أصاب جيش فردريك فى روح الفرنج المعنوية، ولكنهم صبروا وصابروا وخاصة بعد أن وصلتهم قوة جديدة من أوربا بقيادة الكند هرى (هنرى دى شمبانى) قريب ملكى فرنسا وإنجلترا. وبدأ الحصار يشتد

حول المدينة، وأبدى الفريقان شجاعة ممتازة، وظهر فى معسكر المسلمين فى هذه المرحلة عدد من الجنود الفدائيين كانوا يسبحون وسط أساطيل العدو لإيصال الأموال والأخبار إلى المسلمين المحاصرين داخل عكا (راجع قصة عيسى العوام فى كتاب الروضتين) وأخيرًا وصلت فلول الجيش الألمانى بقيادة المركيس صاحب صور، ودوق سوابيا (ابن فردريك). ولكن فصل الشتاء كان قد حل ببرده وأمطاره فتوقف القتال.

الدور الثالث

من ربيع ٥٨٧هـ (١١٩١م) إلى سقوط المدينة

بدأت المدينة فى هذا الدور تضعف ضعفًا ظاهرًا بعد هذا الحصار الطويل، وكان الفرنج قد ارتفعت روحهم المعنوية وزادت قوتهم بوصول فيليب أوجست وريتشارد قلب الأسد. وحاول صلاح الدين أن يرسل مددًا أو مؤونة جديدة إلى المدينة، ولكن العدو كان متفوقًا فى البحر. فأحاط الأسطول الإنجليزى بالسفن الإسلامية، فلما عجزت هذه السفن عن المقاومة أمر ربابنتها بتحطيمها فحطمت وغرقت وغرقوا مع من فيها.

ولم يكن الفرنج فى هذا الدور على وفاق، فقد اختلف المركيس صاحب صور مع بقية القواد وعاد إلى مدينته صور، وكذلك نشب نزاع قوى بين الملكين فيليب وريتشارد، ومع هذا فقد اشتد الضيق بالمسلمين فى المدينة وخاصة بعد أن عجز صلاح الدين عن نجدتهم أو إمدادهم.

تسليم المدينة وشروط الصلح:

ولهذا بدأت المفاوضات بين الطرفين لتسليم المدينة، واتفق على الشروط الآتية:

- أن تسلم المدينة للفرنج بما فيها من الآلات والعدد والأسلحة.
- أن تدفع مائتى ألف دينار فدية لمن بها من أسرى المسلمين.
- أن يطلق سراح ألف وخمسمائة فارس من مجاهيل الأسرى الفرنج ومائة معينين بالاسم.
- أن يرد للفرنج صليب الصلبوت.
- أن يخرج جميع من فى المدينة من المسلمين سالمين.

وسلمت المدينة فى ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ (١٢ يوليو سنة ١١٩١م)، فحزن صلاح الدين لسقوطها الحزن كله وفرح الفرنج بهذا النصر.

نكث العهد ونقض الصلح:

ومع هذا فقد حنث الفرنج بوعودهم، ولم ينفذوا شروط الصلح، وبدأ سوء التفاهم بين الفريقين، فالفرنج لا يريدون تسليم الأسرى إلا بعد أخذ الفدية كلها، والمسلمون لا يريدون دفع المال إلا إذا تأكدوا من إطلاق الأسرى وبدأ المسلمون يجمعون مال الفدية، وعرضوا أن يدفعوا نصفه بشرط أن يضمن رؤساء الداوية إطلاق سراح الأسرى عند دفع النصف الثانى، ولكن رؤساء الداوية رفضوا إعطاء هذا الضمان، وأصر الفرنج على أخذ المال كله، ولهم بعد ذلك أن يطلقوا سراح من شاءوا ويحتفظوا بمن شاءوا فى أسرهم، وعند ذلك بدأ صلاح الدين يشك فى نواياهم وأيقن أنهم إنما يريدون أخذ المال ليتقووا به ثم يطلقون بعد ذلك سراح الفقراء من الأسرى ويحتفظون بالأمراء والكبار ليصيبوا من ورائهم مالاً جديدًا.

وأبى صلاح الدين دفع المال، واستؤنف القتال مريرًا بعد استيلاء الفرنج على عكا، وخاصة عندما أصبح المسلمون فرأوا جثث أسراهم فى عكا - وكانوا نحو ٣٠٠٠ - وقد قتلهم الفرنج ولم يبقوا فى أسرهم غير الأمراء والأغنياء.

استئناف القتال بعد عكا:

كان لأخذ عكا أثر كبير فى نفوس الفرنج، فقد رفع روحهم المعنوية، كما كان له أثر مضاد فى نفوس المسلمين فقد تخاذلوا بعد ذلك وتولت هزائمهم.

كانت القيادة فى جيش الصليبيين لرتشارد، لأن فيليب كان قد عاد إلى وطنه فرنسا بعد أن اشتد النزاع بينه وبين رتشارد، واتجه رتشارد بجيوشه جنوبـًا يريد الاستيلاء على مدن الساحل، فإذا تم له هذا اتجه إلى بيت المقدس. وقامت بينه وبين المسلمين معركة عنيفة عند مدينة أرسوف (شعبان ٥٧٨هـ - سبتمبر ١١٩١م) هزم فيها المسلمون هزيمة كبيرة، لولا ثبات صلاح الدين وأثره الشخصى فى إثارة الحماس بين جنده لكانت موقعة أرسوف نكبة كبرى.

وأحس صلاح الدين ضعف الروح المعنوية بين رجاله، فجمع قواده للاستشارة، ونصحوا بأن تترك مدن الساحل للفرنج ولكن بعد تخريبها حتى لا يتقوى العدو بحصونها وقلاعها، ووافق صلاح الدين على هذا الرأى لأنه كان يعلم أن العدو قوى عند الساحل ولكنه يستطيع الانتصار عليه إذا هو توغل فى الداخل. وبدأ بتخريب مدينة عسقلان، وتألم كثيرًا لتخريبها، ثم أتبعها باللد والرملة، واتجه بعد ذلك إلى بيت المقدس وأخذ يعمل على تقويتها وتحصينها.

واستولى الفرنج فعلا على مدن الساحل، وبدأوا يستعدون للتقدم نحو الداخل، وهنا نشأ خلاف جديد بين المركيس كنراد دى مونتفرات وبين رتشارد، وبدأ كل منهما يسعى من ناحيته للاتصال بصلاح الدين ومفاوضته طلبًا للصلح، وكانت شروط المركس أن تكون له صيدا وبيروت

على أن يكون حليفًا للمسلمين ضد الفرنج، غير أن صلاح الدين لم يكن على استعداد للوثوق بوعوده فطلب منه أن يبدأ بحرب الفرنج فى عكا قبل الصلح.

أما رتشارد فكانت له شروط أخرى، أهمها:

الاستيلاء على بيت المقدس، ورد صليب الصلبوت، وأخذ البلاد الواقعة بين نهر الأردن والساحل، وأن يقوم تحالف بين الدولة الإسلامية والصليبيين، وأن يتزوج الملك العادل أخت الإنكتار ويحكمان معًا الدولة الجديدة فى بيت المقدس.

ولكن هذه الشروط لم تلق فى النهاية قبولاً لدى الطرفين، فقد ثارت فى سبيلها اعتراضات كثيرة، وبدأ المسلمون يستعيدون قوتهم، وبدأوا يحرزون بعض الانتصارات، وكانت غيبة رتشارد قد طالت عن وطنه، وقامت فى إنجلترا منافسات خطيرة على العرش ترمى لعزله. وأدرك رتشارد الحقيقة أخيرًا، أدرك أنه يستطيع أن يحرز الانتصارات المؤقتة ولكنه من غير الطبيعى أن ينتصر على قوم فى وسط بلادهم تتجدد قواهم دائمًا، فى حين أنه بين ميدان القتال ومقر دولته مسافات شاسعة.

ولهذه الأسباب مجتمعة بدأت المفاوضات من جديد للصلح، وتخللت المفاوضات مجاملات كثيرة وهدايا متبادلة بين الطرفين، ونشأ نوع من الود بين العادل أخى صلاح الدين ورتشارد.

وكان صلاح الدين يرى أنه من الأفضل أن يبدأ بمصالحة المركيس صاحب صور، فإذا خلص من رتشارد كان من السهل القضاء على المركيس لضعف شأنه، ولكنه لم يلبث أن سمع بمقتل المركيس، قتله اثنان من رجاله فى رواية، أو من الفدائيين الحشيشية فى رواية أخرى.

استقر صلاح الدين فى القدس يقويه ويحصنه، وأفسد الماء خارجه، واتجه الفرنج بجيوشهم نحو هذه المدينة، ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى الساحل، بعد أن أدركوا أن تحصينات القدس ليس من السهل التغلب عليها.

وتجددت مفاوضات الصلح، وعرض رتشارد أن يترك الساحل لابن أخته الكندهرى (الكونت هنرى دى شمبانى) وأن يأخذ الفرنج كنيسة فى بيت المقدس، ورضى صلاح الدين أن يعطيهم كنيسة القيامة وأن يترك لهم الساحل، فيما عدا عسقلان وما يليها جنوبًا فاشترط أن تترك خرابًا وألا تكون لأحد من الطرفين، وأن تكون جميع القلاع الجبلية للمسلمين.

وطالت المفاوضات، وتخللها موقعة عند يافا، فقد حاصرها صلاح الدين وأخذها. وكان ريتشارد متجهًا إلى بيروت، فلما سمع بسقوط يافا عاد وأبدى شجاعة فائقة حتى استردها. وعاد صلاح الدين إلى الرملة، وفى أثناء ذلك مرض رتشارد، واشتد به المرض، وأرسل إلى صلاح الدين يطلب فاكهة وثلجًا، فأرسلها صلاح الدين إليه تقديرًا لبطولته.

صلح الرملة

وبعد الشفاء اشتدت رغبة رتشارد فى عقد الصلح، فقد اشتد حنينه للعودة إلى الوطن. وأخيرًا عقد الصلح فى ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ (٣ سبتمبر سنة ١١٩٢م) - وهو المعروف بصلح الرملة - وبه اختتمت الحملة الصليبية الثالثة، وحلف عليه أمراء الفرنج والكندهرى، كما حلف عليه العادل وولدا صلاح الدين، ودخل فى الصلح أمير طرابلس وأنطاكية، وأهم شروطه.

- يحتفظ الفرنج بمنطقة الساحل من عكا إلى يافا.
- يسمح للحجاج المسيحيين بزيارة بيت المقدس.
- تكون عسقلان - بعد تخريبها - وما يليها جنوبًا بيد صلاح الدين.

وتم الصلح، ووفد الحجاج إلى القدس للزيارة فأكرمهم صلاح الدين وبالغ فى إكرامهم، وعاد ريتشارد إلى بلاده.

خاتمة جهــاد
ووفــاة بطل

وأقام صلاح الدين فى القدس قليلاً يبنى ويعمر ويصلح وينشئ المدارس والمستشفيات كعادته، ثم اتجه إلى الشمال يتفقد أحوال مملكته ورعاياه وعاد إلى دمشق فقضى بــها شـهورًا للاسـتجمام بعد هذا الجهاد الطويل والعناء الشاق، ولكنه ما لبث أن مـرض بـالحمى، ولم يمهلـه المـرض إلا أيامًا معدودات، ثم بلغ الكتــاب أجلـه، وارتفعت روحـه إلى بارئـها فـى ٢٧ صفـر ٥٨٩هـ (٤ مارس سنة ١١٩٣م) فحزن المسلمون لموته حزنًا لم يحزنوه لموت أحـد مـن قبلـه، فقـد مـات البطل الذى قادهم نحو النصر، ورد اعتبارهم، وأيقظ فيهم روح العزة والكرامة والبطولـة، وكـان لهم المثل الأعلى بتقواه وشجاعته ونبله ومروءته.

البـــاب الســادس

الأيوبيون والحركة الصليبية بعد صلاح الدين

١ - تقسيم الدولة بين أولاده .

٢ - العادل يوحد الدولة من جديد .

٣ - تطور الحركة الصليبية واتجاهها نحو مصر .

٤ - حملة هنرى السادس الصليبية وفشلها .

٥ - الحملة الصليبية الرابعة .

٦ - حملة الأطفال .

الباب السادس

الأيوبيون والحركة الصليبية بعد صلاح الدين

١ - تقسيم الدولة بين أولاده :

أهم ما يميز تاريخ الأيوبيين بعد صلاح الدين هو النزاع الطويل المستمر بين أفراد هذا البيت، فقد آلت أجزاء الدولة الهامة بعد وفاة صلاح الدين إلى أبنائه، فولى الملك العزيز عثمان مصر ، وولى الملك الأفضل على جنوب الشام وكان مقر حكمه دمشق ، وولى الملك الظاهر غازى شمال الشام وكان مقر حكمه حلب ، أما أجزاء الدولة الأخرى فكانت ولايات صغيرة ، أو ممالك - كما كانت تسمى - ولى الحكم فيها فروع مختلفة من الأسرة ، وأهمها مملكة حمص ووليها أفراد من سلالة أسد الدين شيركوه ، ومملكة حماة ووليها أفراد من أسرة تقى الدين عمر بن شاهنشاه .

٢ - العادل يوحد الدولة من جديد :

غير أن عوامل المنافسة لم تثبت أن نشبت بين أبناء صلاح الدين ، فاستغل أخوه الملك العادل هذه المنافسة لصالحه الخاص ، ولم تمض غير سنوات قليلة حتى أبعد الملوك من بيت صلاح الدين - فيما عدا الملك غازى صاحب حلب - وأصبح هو الحاكم للدولة الموحدة التى كان يحكمها أخوه صلاح الدين من قبل .

وقد حاول العادل أن يمرر فعلته بتقرير مبدأ خطير يمس نظام الحكم الأساسى فى الدولة. فقد قال مخاطبا أمراء الدولة ومبررًا خلعه للسلطان الأيوبى الصغير المنصور بن العزيز : (إنه قبيح بى أن أكون أتابك صبى مع الشيخوخة والتقدم ، والملك ليس هو بالإرث ، وإنما هو لمن غلب) .

وكان من الممكن أن يفهم قول العادل على أنه مناداة بمبدأ جديد من مبادئ السيادة يعارض نظام الحكم الوراثى لو أنه كان يعنى ما يقول حقا، ولكننا نلاحظ أنه لم يستشهد بهذا الرأى إلا لخدمة صالحه الخاص ، بدليل أنه جعل الحكم من بعده وراثيًا فى أبنائه ، فتولى ابنه الملك الكامل محمد ملك مصر، وولى ابنه المعظم عيسى ملك دمشق ، وولى ابنه الأشرف موسى ملك الجزيرة، بل لقد ظل الملك فى مصر خاصة، وهى أهم أقسام الدولة ، فى سلالة العادل حتى نهاية الدولة .

٣ - تطور الحركة الصليبية واتجاهها نحو مصر :

والظاهرة الهامة الثانية فى تاريخ الأيوبيين بعد صلاح الدين هى موقفهم من الصليبيين ومن النضال ضدهم، فقد كان هدف الحملات الصليبية التالية هو القضاء على الدولة الأيوبية فى مصر باعتبارها مركز المقاومة الأول. ومع أن ملوك الأيوبيين قد بذلوا الجهد الأكبر فى مقاومة هذه الحركة فإننا نلاحظ أن معظم هؤلاء الملوك قد جنحوا إلى مسالمة الصليبيين وإلى اصطناع السياسة فى علاقاتهم معهم كلما أمكن ذلك ، وكانوا يهدفون بتساهلهم بعض الشىء فى مصالحهم بالشام إلى حماية ملكهم فى مصر، ومنع الصليبيين من التفكير فى الإغارة عليها . ومع أنهم نجحوا فى هذه السياسة بعض النجاح فإن هذا لم يحل بين الحملات الصليبية وبين تطورها الطبيعى الذى انتهى بها إلى الاتجاه عن الشام إلى مصر .

٤ - حملة هنرى السادس وفشلها :

مات صلاح الدين والهدنة قائمة بين المسلمين والصليبيين ، وكانت الهدنة تنتهى فى ٥٩٢هـ (١١٩٥م) فجددها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين سنة أخرى تنتهى فى أواسط سنة ٥٩٣هـ (١١٩٦م) .

وفى ذلك الوقت دعا البابا انوسنت الثالث إلى حرب صليبية جديدة ، فلم يلب الدعوة غير السادس ملك ألمانيا، وذلك لأن إنجلترا وفرنسا كانت منصرفتين إلى حرب قائمة بينهما، وبدأت هذه الحملة رحلتها من شواطئ إيطاليا، ووصلت إلى عكا فى أواخر سنة ١١٩٧م (أوائل سنة ٥٩٤هـ) ولم يرحب هنرى دى شمبانى ملك بيت المقدس بهذه الحملة ، وقامت بين القادمين والمقيمين من الصليبيين أسباب النزاع مما ساعد للمسلمين على الانتصار عليهم، ثم وصلت الأنباء بوفاة هنرى السادس، فعادت الحملة بعد أن منيت بالفشل.

٥ - الحملة الصليبية الرابعة :

وتلت هذه الحملة حملة هادئة هى الحملة الصليبية الرابعة (٥٩٨هـ - ٦٠١هـ = ١٢٠٢م-١٢٠٤م) ولم يصل من رجال هذه الحملة إلى الشام إلا أفراد قلائل، أما الحملة فى معظمها فقد اتجهت إلى القسطنطينية، واستولت عليها وكونت فيها دولة لاتينية.

وتفصيل ذلك أن فشل الحملة السابقة أثار غضب البابا انوسنت الثالث، فأرسل الدعوة من جديد يدعو لحملة صليبية، ووجه دعوته إلى فرنسا وإنجلترا وألمانيا، فأجاب الدعوة عدد كبير من سكان هذه الممالك، واجتمعوا فى إيطاليا استعدادًا للرحيل إلى الشرق ، واتفق زعماء الحملة مع جمهورية البندقية على أن تنقل جنود الحملة على سفنها مقابل مبلغ كبير من المال .

وعند بدء الرحيل لم يستطع زعماء الحملة جمع المبالغ كله فاستغل دوج البندقية (هنرى دندولو Dandollo) هذا التطور الجديد لصالحه ، واستعان بالحملة للاستيلاء على مدينة زارا الخارجة عليه، والتى كانت تتمتع وقتذاك بحماية ملك المجر، وذلك مقابل إعفاء الحملة من دفع رسوم نقلهم على سفنه .

وفى ذلك الوقت قام نزاع شديد على العرش بين أفراد الأسرة الحاكمة فى القسطنطينية ، ووصل واحد من هؤلاء الأفراد المتنازعين إلى الغرب يستعين بأى قوة هناك لتعيده إلى العرش ، فانتهز دندولو الفرصة للمرة الثانية، وكانت بين البندقية وبين القسطنطينية منافسات سياسية وتجارية عنيفة، فخرج دندولو لقيادة الحملة بنفسه . غير أنه لم يتول هو تحويل الحملة عن مصر والشرق الإسلامى إلى القسطنطينية، وإنما استعمل مهارته لدفع قواد الحملة إلى الإقدام على هذا التحويل، واكتفى هو بأن يعمل من وراء ستار، وقد دفع دندولو إلى هذا كثير من العوامل أهمها ما كان بين البندقية وبيزنطة من منافسات سياسية وتجارية - كما ذكرنا - ومنها أيضًا أنه كان يخشى أن تتعرض مصالح البندقية التجارية مع مصر للخطر لو أن هذه الحملة اتجهت إليها .

واستطاعت الحملة أن تصل إلى القسطنطينية وأن تستولى عليها بعد أن فر منها الإمبراطور المغتصب، وقامت بها منذ ذلك الحين إمبراطورية لاتينية خاضعة لنفوذ البندقية ، وظلت قائمة نحو ستين عامًا.

وكان لتحول هذه الحملة عن مصر والشام نتائج خطيرة أخرى ، فقد اجتذبت الدولة اللاتينية الجديدة كثيرًا من العناصر الصليبية التى كانت تتجه من قبل إلى الشرق الأدنى الإسلامى . بل لقد رحل كثيرون من صليبى الشام إلى القسطنطينية وبلاد اليونان بعد إنشاء هذه الدولة، مما دفع ملك بيت المقدس إلى تجديد الهدنة مع الملك العادل أبى بكر فى ٦٠٧هـ (١٢١٠م) .

ويقول بعض المؤرخين إن سياسة الملك العادل كان لها شأن فى تحويل هذه الحملة الرابعة عن مصر والشام إلى القسطنطينية ، وأنه أرسل إلى البندقية فى ذلك الحين سفارة تحمل إليها بعض الهدايا ووعودًا بأن تمنح تجارة البندقية مزايا استثنائية مقابل أن يبذل الدوج نفوذه لإبعاد الحملة عن مصر .

ومع أن بعضا آخر من المؤرخين يشك فى صحة هذه الرواية فإن هناك من جهة أخرى ما يقويها ويدفع إلى تصديقها، وذلك أن العادل كان رجلاً سياسيًا، وكان يؤثر دائمًا استعمال الوسائل الدبلوماسية دون الحرب لحل مشكلاته المختلفة. كذلك كان العادل قد عقد فى سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) معاهدة تجارية مع البنادقة منحهم فيها كثيرا من المزايا التجارية

فى الإسكندرية وغيرها من ثغور مصر مقابل أن تتعهد البندقية بمنع أى حملة تريد الوصول إلى مصر .

ومع هذا فقد كانت الروح الصليبية لا تزال أقوى من هذه المعاهدات ومن هذه الوسائل السلمية، وكان البابا يصدر دائمًا الأوامر المشددة لمنع التجارة مع مصر، ويحرم أن تباع إليها بعض السلع الهامة المتصلة بالحرب وإعداد الجنود وصنع الآلات الحربية مثل الخشب والحديد والأسلحة والرقيق.

ولهذا نجد أن حملتين قويتين وجهتا إلى مصر فى أواخر العصر الأيوبى .

٦ - حملة الأطفال (٦٩٥هـ - ١٢١٢م) :

وقد سبقت هاتين الحملتين حملة طريفة ، هى حملة الأطفال ، فقد قام فى أوربا صبى من الرعاة وادعى أن المسيح أمره بقيادة حملة صليبية من الأطفال لإنقاذ بيت المقدس، واجتمع حوله عدد كبير من الأطفال بلغوا فيما يقال الثلاثين ألفا من مختلف الممالك، وهم خليط من الأولاد ومن البنات اللائى اتخذن ملابس الأولاد وكلهم فى سن الثانية عشرة من عمرهم أو ما يقرب منها، ووصل هذا الحشد إلى الشواطئ الإيطالية وإلى مارسيليا ، وقد غرر بهم بعض التجار وأصحاب السفن فحملوهم إلى الثغور الإسلامية وباعوهم فى الإسكندرية وغيرها من البلدان الإسلامية بيع الرقيق.

وتلت هذه الحملة الحملتان الهامتان السابق ذكرهما ، وهما حملة جان دى بريين وحملة لويس التاسع . وهاتان الحملتان تؤرخان الاتجاه الجديد الذى بدأت الحركة الصليبية تتخذه، وهو الابتعاد مؤقتًا عن البلاد المقدسة بالشام، وتوجه قواهم كلها لتحطيم الملك الأيوبى فى مصر باعتبارها مصدر القوة والزعامة ، ومصدر المقاومة الإسلامية الكبرى .

الباب السابع

الحملات الصليبية فى عهد
الملك الكامل محمد

١ - الحملة الصليبية الخامسة بقيادة جان دى بريين .

٢ - الحملة الصليبية السادسة بقيادة الإمبراطور فردريك الثانى .

الباب السابع

الحملات الصليبية فى عهد الملك الكامل محمد

- ١ -

الحملة الصليبية الخاصة بقيادة جان دى بريين

وفى أواخر عهد الملك العادل أبى بكر أصاب الحروب الصليبية انقلاب جديد خطير. فقد لاحظ الصليبيون أن مصر هى حصن الإسلام القوى وضيعته الغنية، وأنها مصدر الإمدادات القوية الوفيرة من الرجال والميرة والسلاح. وبفضل هذا كله استطاع صلاح الدين أن ينتصر عليهم انتصاراته الحاسمة، ويستعيد منهم بيت المقدس والكرك والشوبك وغيرها من عشرات المدن والقرى، ولهذا كله قر رأيهم على أن يبدأوا بمصر، فإذا استولوا عليها فقد سهل عليهم كل شيء، واستطاعوا فى يسر أن يستعيدوا بيت المقدس بل ويملكوا الشام كله.

بدأوا هذا الاتجاه فى سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) والملك العادل يناضلهم فى الشام. وفى مصر ابنه الملك الكامل محمد ينوب عنه فى الحكم.

واتخذ الصليبيون لهذا الأمر عدته ، ووصلتهم الإمدادات الوفيرة من ممالك أوربا المختلفة. فلما تكامل عددهم أبحروا - بقيادة جان دى بريين ملك بيت المقدس - من عكا إلى دمياط فى أسطول ضخم كثير العدد يحمل نحو السبعين ألف فارس وأربعمائة ألف راجل. ووصلوا إلى شواطئ دمياط. ونزلوا ببرها الغربى يوم الثلاثاء رابع ربيع الأول من سنة ٦١٥ (يونيو سنة ١٢١٨)، وكان هذا البر الغربى يسمى جزيرة دمياط. وهى تسمية مجازية لأن مياه البحر تحيط به شمالاً ومياه النيل تحيط به شرقًا، كما كان يسمى أيضًا جيزة دمياط. والجيزة فى اللغة الناحية . أو لعله سمى كذلك لأنه يجاز إليه من دمياط.

وعسكر الصليبيون فى جموعهم الحاشدة بهذا البر الغربى تجاه دمياط. وحصنوا معسكرهم، فحفروا حوله خندقًا وأحاطوه بسور وستائر.

وكانت دمياط - كما سبق أن أسلفنا - مدينة حصينة غاية الحصانة، تحيط بها الأسوار والقلاع والأبراج القوية الضخمة ، ويحيط بهذه الأسوار الخندق الذى أنشىء فى أواخر عهد

صلاح الدين. وكان عند مدخل فرع دمياط برج ضخم مشحون بالمقاتلة والسلاسل الحديدية المتينة تمتد منه إلى برج مقابل على شاطئ دمياط لمنع سفن العدو من العبور فى النيل والوصول إليها (إلى المدينة)، وكان هذا البرج هو مفتاح دمياط لا يمكن للصليبيين الوصول إليها إلا إذا استولوا عليه، ولهذا توافرت جهودهم كلها فى أول الأمر للاستيلاء على هذا البرج المنيع، واستعانوا لتحقيق هذا الهدف ببناء أبراج خشبية عالية أقاموها على سفنهم وتقدموا بها إلى البرج لمحاربة جنده وحاميته ولكن هؤلاء الجند استطاعوا أن يردوهم أكثر من مرة.

ووصلت أخبار نزول الصليبيين إلى بر دمياط الغربى إلى الملك الكامل، فخرج بجيشه متجهًا إلى الشمال، وأرسل الأساطيل إلى دمياط، وأمر الولاة بجمع العربان. ونزل الكامل بمنزلة العادلية قرب دمياط وعسكر بها، هذا والملك العادل يرسل إليه المدد تلو المدد من الشام ليستعين بها جميعا فى محنته.

وظل البرج يقاوم ويمانع أربعة أشهر طوالاً. وأخيرًا بنى الفرنج برجًا عاليًا ضخمًا وأقاموه على بطسة كبيرة، وتقدموا به تحت وابل من سهام المصريين إلى أن أسندوا برجهم إلى البرج المدافع، وقاتلوا به قتالاً عنيفًا إلى أن استولوا على برج دمياط.

وكان استيلاؤهم على هذا البرج حادثًا خطيرًا أليمًا، فقد سهل لهم الاستيلاء على المدينة بعد ذلك، ويكفي للدلالة على خطورة هذا الحادث أن نذكر أن الملك العادل عندما سمع بخبره وهو مقيم ببرج الصفر بالشام تأوه تأوها شديدًا، ودق بيده على صدره أسفًا وحزنًا، ومرض من ساعته، ثم لم يلبث أن مات من حسرته بعد أيام.

وخلص ملك مصر للملك الكامل محمد، فاشتد ثقل العبء الملقى على كتفيه، لأن الصليبيين أقدموا بعد استيلائهم على البرج فحطموا سلاسله لتجوز مراكبهم فى نهر النيل، فاضطر الكامل لإقامة جسر عظيم جنوبى البرج لمنعهم، ولكنهم قاتلوا عليه قتالاً شديدًا إلى أن قطعوه، ويقال إن الكامل صرف على البرج والجسر فى ذلك الوقت ما ينيف على سبعين ألف دينار.

ولم ييأس الكامل وإنما أمر أن تغرق عدة من السفن فى عرض النيل لتمنع سفن الصليبيين من العبور جنوبًا، واحتال الفرنج على هذا الإجراء الأخير حيلة ماكرة، فقد كان هناك على البر الغربى خليج قديم يعرف بالخليج الأزرق كان يجرى فيه النيل فيصب فى البحر ولكن الرمال طمرته. فأعادوا حفره، وأصعدوا فيه سفنهم حتى وصلت إلى مدينة بورة التى تقابل منزلة العادلية حيث يعسكر الكامل بجيوشه، وبدأت المناوشات بين الجيشين.

كل هذا ودمياط لا زالت آمنة وسورها يحميها وأبوابها مفتحة، والميرة والامداد تصل إليها دون انقطاع، والنيل لا يزال يفصل بينها وبين العدو. والعربان تقض مضاجع الصليبيين فتتخطفهم من معسكراتهم فى الليل، حتى امتنعوا من الرقاد خوفًا من غاراتهم. وقامت رياح

عاصفة فقطعت مراسي مرمة للفرنج (وهى سفينة ضخمة جدًا مشحونة بالميرة والسلاح) ويقول عنها المقريزى: (وكانت من عجائب الدنيا، فمرت إلى بر المسلمين فأخذوها، فإذا فيها مسامير زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً).

ولو سارت الأمور سيرها الطبيعى لما وصل الصليبيون إلى دمياط، ولكن البلاء نبت فى معسكر المسلمين أنفسهم، فقد انتهز أحد أمرائهم الكبار ويدعى عماد الدين أحمد بن المشطوب – فرصة موت الملك العادل، واستمال إليه عددًا من قواد الجيش، وحاول أن يخلع الكامل ويولى مكانه أخاه الملك الفائز، وعلم الكامل بالمؤامرة فخشى على نفسه، فترك معسكره بالعادلية فى الليل وانسحب جنوبًا إلى أشموم طناح.

وأصبح الجند بغير سلطان، فتفرقت كلمتهم، وتركوا أثقالهم وخيامهم وأموالهم وأسلحتهم ولحقوا بالسلطان.

ورحب الفرنج بالفرصة المواتية ونزلوا إلى البر الشرقى يوم الثلاثاء سادس عشر ذى القعدة دون أن يلقوا أية مقاومة، واستولوا على جميع ما كان فى معسكر المسلمين، وكان شيئًا لا يحيط به الوصف. وعسكروا فى البر الشرقى، وحصنوا معسكرهم، كالمعتاد، فحفروا حوله خندقًا وبنوا سورًا، وبدأوا يحاصرون دمياط ولكن أهلها صمدوا للقتال وقاوموا مقاومة مجيدة عنيفة، وخضعوا إبان هذا الحصار لشدائد مريرة، فقلت الأقوات عندهم، وكان بالمدينة – غير أهلها – عشرون ألف مقاتل، فلما طال بهم الحصار أنهكتهم الأمراض وغلت الأسعار حتى بيع رطل السكر بمائة وأربعين دينارًا، والدجاجة بثلاثين، وأروية الماء بأربعين درهمًا.

واحتال السلطان للاتصال بأهل دمياط لتشجيعهم وتقوية روحهم المعنوية، فانتدب لذلك رجلاً من جنوده يدعى شمائل، فكان يسبح فى الماء بعيدًا عن أعين الفرنج حتى يصل إلى أهل دمياط فيعدهم بوصول النجدات.

وطال الحصار بالمدينة ستة عشر شهرًا واثنين وعشرين يومًا، حتى اشتد بهم الضيق وعدمت لديهم الأقوات، وامتلأت الطرقات والمساكن بالموتى. وتسور الفرنج المدينة، وأخيرًا دخلوها فى يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان سنة ٦١٦ هـ (نوفمبر سنة ١٢١٩م) فوضعوا السيف فى رقاب الناس، وأسرفوا فى قتلهم، وجعلوا جامع المدينة كنيسة، وانبثوا فى القرى المجاورة، وأخذوا يحصنون المدينة وأسوارها، لتيخذوها قاعدة يتقدمون منها نحو الجنوب.

وعسكر الملك الكامل قبالة طلخا عند مخرج بحر أشموم طناح (البحر الصغير الآن)، وشرع الجند يبنون الدور والفنادق والحمامات والأسواق فى هذه المنزلة، (وقد سميت بعد ذلك المنصورة تيمنا بانتصار الكامل).

وكان الملك الكامل قد أرسل الرسل إلى ملوك الأيوبيين فى الشام من إخوتـه وأقاربـه يسـألهم النجدة والمعونة. فوصله فى ذلك الوقت أخوه الملك المعظم عيسى بجيش كبير ، فقوى به قلبـه، وخاصة أنه سعى بعد وصوله فأنجاه من ورطته بإبعـاد أخيـه بقيـادة الفائز وابـن المشـطوب إلى الشام، فهدأت الفتنة. ووصلت نجدة أخرى مـن حمـاة بقيـادة المظفر الثـاني ابـن أخـت الملـك الكامل فى جيش كثيف ففرح بوصولها. ثم وصلت نجـدة كـبرى بقيـادة الملـك الأشـرف موسـى أخى الكامل، وبلغت بذلك عـدة فرسـان المسـلمين نحـو أربعـين ألـف فـارس ، فقويـت قلـوب المسلمين وبدأوا يستعدون للمعركة الحاسمة .

وتقدم الصليبيـون - بعـد تحصـين دميـاط ، وبعـد أن وصلتـهم أمـداد وفـيرة العديـد - نحـو الجنوب فى حدهم وحديدهم ، ونزلوا قبالة جيش المسلمين شمال بحر أشموم طناح، ولا يفصـل بين المعسكرين غير هذا البحر.

واشتد القتال بين الفريقين وأبلى المسلمون بلاء حسنًا ، فاستولوا على نحو تسع سـفن كبـيرة من سفن الفرنج التى تحمل إليهم الميرة من دمياط ، وأسروا منهم ألفين ومائتين .

ثم احتال الكامل فأرسل سفنًا من أسطوله بقيادة الأمير بدر الدين حسون فى بحـر المحلـة، وهو فرع كان يخرج من النيل قرب بنها الحالية، ويتصل به ثانية شمالى المنصورة، فحالت هذه السفن بين مراكب الفرنج الآتية من الشمال بالميرة وبين الوصول إلى معسكرهم عند المنصورة، ثـم عبر جماعة من المسلمين فى بحر المحلة هذا إلى الأرض التى يعسـكر عليـها الفرنـج. (وحفـروا مكانًا عظيمًا فى النيل، وكان فى قوة الزيادة، فركب الماء أكثر تلك الأراضى وصـار حـائلاً بـين الفرنج ومدينة دمياط، وانحصروا فلم يبق لهم سـوى طريـق ضيـق ، فـأمر السـلطان فـى الحـال بنصب الجسور عند أشموم طناح، فعبرت العساكر عليها، وملكت الطريق التى يسـلكها الفرنـج إلى دمياط إذا أرادوا الوصول إليها، فاضطربوا وضاقت عليهم الأرض) .

وفت ذلك كله فى عضد الفرنج، واضطربت أحوالهم، وبدأوا يفاوضون الكامل، ويعرضون أن يتركوا دمياط مقابل أن تعاد إليهم القدس وعسقلان وطبرية وجبلـة واللاذقيـة والكـرك والشـوبك وغيرها من المدن الكثيرة التى كان قد استعادها منـهم البطـل صـلاح الديـن . وقبـل الكـامل أول الأمر أن يسلم لهم هذه المدن جميعا عدًا الكرك والشوبك لمكانتهما الحربية، ولكنهم أصروا علـى طلباتهم. فلما أحيط بهم من الشمال وأصبحوا محاصرين بالمسلمين من كل الجهات أدركوا أنـهم هزموا، فهدموا خيامهم ومجانيقهم وألقوا فيها النار، وهموا بـالزحف علـى المسـلمين ومقاتلتـهم للعودة إلى دمياط . (فحال بينهم وبين ذلك كثرة الوحل والمياه الراكدة على الأرض، وخشوا مـن الإقامة لقلة أقواتهم، فذلوا وسألوا الأمان على أن يتركوا دمياط للمسلمين ، دون قيد أو شرط .

وبدأ الكامل يستثير أهله وأصحابه . فأشار عليه البعض أن يواصل القتال حتى يتم له النصر النهائى ، وأشار البعض الآخر أن يعطى الفرنج الأمان إجابة لطلبهم، وتغلب الرأى الأخير خوفا من أن يصل إلى الفرنج مدد جديد فيستأنفوا القتال، واتفق الفريقان على أن يقدم كل منهما رهائن للآخر حتى يتم تسليم دمياط، فأرسل الفرنج عشرين ملكًا من ملوكهم رهائن عند الملك الكامل، وأرسل الكامل ابنه الصالح نجم الدين أيوب وعددًا من قواده .

وجلس الكامل مجلسًا عظيمًا لاستقبال هؤلاء الملوك الرهائن وحوله إخوته وأهل بيته. (وصار فى أبهة وناموس مهاب) ، وخرج قسوس الفرنج ورهبانهم إلى دمياط فسلموها للمسلمين. تاسع عشر من رجب سنة ٦١٨هـ ، فلما تم تسليمها بعث الفرنج الصالح نجم الدين ومن معه من الأمراء، كما أطلق الكامل رهائنه من الملوك .

واتفق الفريقان بعد هذا على هدنة مداها ثمانية أعوام، وعلى أن يطلق كل منهما من عنده من الأسرى، ودخل الملك الكامل دمياط وفى ركابه أخوته وقواده وعساكره ، وكان يوم دخوله إليها من الأيام المذكورة، وأرسلت البشائر بأخذ دمياط إلى كل البلاد الإسلامية .

وهكذا نزح الصليبيون عن دمياط بعد أن قضوا فيها وعلى شاطئيها الغربى والشرقى ثلاث سنين، وأربعة أشهر، وتسعة عشر يومًا .

وتبارى شعراء العصر - كالعادة - فى تمجيد هذا النصر والإشادة به، وكان أجمل ما قيل فى هذه المناسبة قصيدة الشاعر الكبير شرف الدين بن عنين التى قال فيها :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا	إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة التقينا دون دمياط جحفلا	من الروم لا يحصى يقينًا ولا ظنا
وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا	إلينا سراعا بالجهاد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم	بأطرافها، حتى استجاروا بنا منا
بدا الموت من زرق الأسنة أحمرا	فألقوا بأيديهم إلينا، فأحسنا
وما برح الإحسان منا سجية	نورثها من صيد آبائنا إلا بنا
وقد عرفت أسيافنا ورقابهم	مواقعها منا ، فإن عادوا عدنا
منحناهم منا حياة جديدة	فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا	ولوغا ، ولكنا ملكنا فأسجحنا

- ٢ -

الحملة الصليبية السادسة

بقيادة الإمبراطور فردريك الثانى

انتهت حملة جان دى بريين المعروفة بالحملة الخامسة بالفشل ، وعقدت بين الطرفين هدنة لمدة ثمانى سنوات، ووصلت حوالى ذلك الوقت إلى دمياط بعض السفن تحمل جندًا من الألمان ، وهم فرقة كان يريد فردريك الثانى أن يسهم بها فى الحملة ، ولكن هذه السفن وصلت متأخرة بعد انتهاء المفاوضات وعقد الهدنة، فاحترمتها، ولم تجدد الحرب، وجلت الحملة الصليبية عن مصر نهائيًا فى شعبان سنة ٦١٨ (سبتمبر ١٢٢١) .

ولم تكن هذه الحملة آخر حملة شهدها عصر الملك الكامل محمد ، فقد أتت إلى الشرق حملة أخرى فى أواخر عهده، وأخبار هذه الحملة طريفة وغريبة لأنها تختلف عن الحملات الصليبية الأخرى جميعًا فى كل شىء، فإنها كانت حملة سلمية لم يحمل فيها سلاح ولم ترق فيها دماء ، وإنما انتهت بالاتفاق السلمى وعقد معاهدة ترضى الطرفين .

كان قائد هذه الحملة الإمبراطور فردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك الصقليتين، وكان فرديك قد نذر - إجابة لدعوة البابا - القيام بحملة صليبية إلى الشرق، وبدأ بإرسال هذه السفن القليلة التى وصلت عقب الهدنة. ولكن الباب جريجورى التاسع ظل يحثه على القيام بحملة أخرى قوية .

وفى سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) تزوج فردريك من إيزابلا ابنة حنا بريين ملك الدولة الصليبية الرمزية ووريثها، وقد توفيت إيزابلا بعد زواجها بثلاث سنوات، ولكن فردريك ظل يطالب بمملكة بيت المقدس كإرث لزوجته، ولهذا بدأ يفكر فى الخروج بحملة إلى الشرق، وكان البابا طوال هذه السنوات يلح فى استنجازه وعده، وفردريك يتباطأ، مما دفع البابا إلى إصدار قرار بحرمان فردريك .

وأخيرا خرج فردريك بحملته فى سنة ٦٢٥هـ (١٢٢٨م) وكانت تتكون من ٦٠٠ فارس فقط مما يدل فى وضوح على أن فردريك لم يكن معتزما الحرب أو النضال الجدى .

ولكى نفهم هذه الحملة على حقيقتها لابد أن نستعرض الأحداث السياسية فى مصر والشام وقتذاك، ولابد أيضا أن نتعرف على شخصية الملكين، الكامل محمد، وفردريك الثانى .

فتح الأغالبة جزيرة صقلية فى القرن الثالث الهجرى (٩م) وظلت تحت حكمهم إلى أن انتقلت إلى ملك الفاطميين فى أواخر القرن الثالث، وإبان خضوع الجزيرة لحكم المسلمين فى

عهدى الأغالبة والفاطميين انتشر فيها الدين الإسلامى والثقافة الإسلامية، وبنيت المساجد فى مختلف بلدانها وأنحائها ، ولما فتح النورمان الجزيرة فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (١١م) لم يقضوا على مظاهر الحضارة الإسلامية ، بل على العكس قربوا إليهم من بها من العرب، واستخدموهم فى البلاط - وفى دواوين الحكم المختلفة، ويكفى أن نشير إلى أن الملك روجر قرب إليه الجغرافى العربى المعروف الشريف الإدريسى، وله رسم الإدريسى خريطة العالم. وباسمه ألف كتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) .

وخير دليل على انتشار الحضارة العربية وازدهارها في جزيرة صقلية فى العصر النورماندى أن معظم ملوك النورمان - وفى مقدمتهم فردريك الثانى - كانوا يتثقفون بالثقافة العربية ويتكلمون اللغة العربية .

وقد بدأت علاقات الود والصداقة تتوثق بين ملوك الأيوبيين وملوك النورمان منذ عهد فردريك الثانى والكامل محمد، وتبدو العلاقات الودية غريبة فى عصر اشتد فيه العداء بين ملوك المسلمين والمسيحيين، وكثرت فيه الحروب الصليبية ، غير أن شخصيتى الملكين وما كان يحيط بهما من ظروف، كان لها أثر قوى فى توثيق هذه العلاقات .

كان الكامل وفردريك ، بشخصيتهما وعقليتهما وثقافتهما يسبقان العصر الذى عاشا فيه، فقد كان العصر عصر تزمت وتعصب دينى وحروب دائمة، أما هما فقد كانت تغلب على كل منهما شخصية الحاكم المثقف الإدارى ، الذى يعنى بالإصلاح ونشر العلم وحرية الفكر وإنشاء المدارس والمعاهد، أكثر من عنايته بالحروب. وكان كل منهما لا يلجأ إلى السيف إذا استطاع أن يحل مشكلاته بالسياسة والطرق السلمية. وقد أحسن (كانتوروفتر Cantorowitz) مؤرخ فردريك الثانى فى وصف الرجلين حين قال:

(كان الملك الكامل صورة شرقية من الإمبراطور ، إن لم يكن أقرب إلى الصحة أن نقول إن الإمبراطور كان صورة غريبة من السلطان الملك الكامل) .

وفى سنة ٦٢٤هـ، ساءت العلاقات بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، وبين أخويه الملك الكامل محمد والملك الأشرف موسى، واتصل المعظم بجلال الدين خوارزمشاه ملك الدولة الخوارزمية ووثق علاقته به ليستعين به إذا هاجمه أخوه الملك الكامل. لهذا سعى الملك الكامل من ناحيته لعقد صلات الود مع فردريك الثانى. وطلب منه الحضور إلى الشام ليسلمه بيت المقدس . ووصلت هذه الدعوة فى أوانها. فقد كان فردريك - كما أسلفنا- يرى نفسه صاحب الحق الشرعي فى مملكة بيت المقدس، كما كان يحب أن يرضى البابا ليلغى قرار الحرمان الذى أصدره ضده .

فالملك الكامل علم أن أخاه المعظم تحالف مع خوارزمشاه تهديدًا له ، وعلم أن فردريك يعد العدة للخروج بحملة صليبية، والكامل لم ينس بعد ما قاساه من صعاب أثناء نضاله مع حملة

بريين، وأنه لم يتغلب عليها إلا بمعاونة أخويه وبمعاونة المعظم بوجه خاص ، والآن لقد انفصل عنه أخوه، بل لقد أصبح يهدده. لهذا أراد أن يضرب الفريقين بحجر واحد، فأرسل أحد قواده وهو الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى فردريك يعرض عليه أن يعطيه بيت المقدس، فيتفادى بذلك الصدام المتوقع بينه وبين الفرنج. ويشغل بهذا أيضًا - كما قال ابن واصل - (سر الملك المعظم) ، ويكسب بعد هذا كله صديقًا من ملوك الفرنج له مكانته وخطره .

وأتى فردريك إلى عكا سنة ٦٢٥هـ زار بيت المقدس ، وكان يقوم بالسفارة بينه وبين الملك الكامل الأمير فخر الدين، وكان يصحب فردريك أثناء إقامته في بيت المقدس القاضي شمس الدين قاضي العسكر. وقد جرت بين فردريك وبين كل من فخر الدين وشمس الدين محادثات ومحاورات علمية فلسفية مختلفة روى بعضها ابن واصل .

وانتهت المفاوضات بين الكامل وفردريك بعقد معاهدة تعتمد على السياسة والتسامح، وتخالف روح العصر مخالفة كبيرة ، وشروطها:

- أن تسلم بيت المقدس للإمبراطور باعتبارها ملكًا الدولة الصليبية. بشرط ألا يقيم الصليبيون فيها حصونًا أو قلاعًا .
- أن يعطى للصليبيين بيت لحم والناصرة وطريق الحاج من بيت المقدس إلى يافا على الساحل.
- أن يبقى فى أيدى المسلمين من بيت المقدس منطقة المسجد الأقصى على ألا يحمل المسلمون فى تلك المنطقة سلاحًا .
- أن يطلق الكامل سراح من عنده من الأسرى .
- أن يتعهد فردريك بمحالفة الكامل ضد جميع أعدائه ، حتى ولو كانوا مسيحيين صليبيين.
- أن يضمن الإمبراطور عدم وصول أمداد صليبية إلى الإمارتين الصليبيتين أنطاكية وطرابلس.
- أن تسرى هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات .

هذه المعاهدة تمثل - كما قلنا عقلية الملكين ، ولكنها لا تمثل روح العصر، ولهذا نراها أثارت الكره والسخط عليها : ثار المسيحيون على فردريك لأنهم كانوا لا يرون مسالمة المسلمين، بل يعتقدون بوجوب محاربتهم .

وثار المسلمون ضد الكامل لأنه فرط فى أملاك المسلمين ، وفى بيت المقدس بالذات، دون حرب أو قتال. وأخذ الواعظ والمؤرخ المشهور سبط ابن الجوزى يلقى المواعظ فى مدينة دمشق للتشهير بالكامل وبفعلته .

ودخل فردريك بيت المقدس . ووضع التاج بيده على رأسه ، لأن رجال الكنيسة رفضوا أن يتعاونوا مع إمبراطور محروم من الكنيسة. وقد حافظ الملكان على المعاهدة محافظة تامة ، وعاش الكامل بعد ذلك تسع سنوات لم يشهد خلالها أى خطر صليبى .

الباب الثامن

عصر الصالح نجم الدين أيوب

ونهاية الدولة

١ - الصالح يستعيد بيت المقدس.

٢ - الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع.

الباب الثامن
عصر الصالح نجم الدين أيوب
ونهاية الدولة

– ١ –

الصالح يستعيد بيت المقدس

خلف الكامل على عرش مصر ابنه العادل الثانى (٦٣٥هـ - ٦٣٧ هـ / ١٢٣٨م - ١٢٤٠م) ولكنه كان طفلا غرًا ليس له صفات أبيه، وقد تمكن أخوه الصالح نجم الدين من خلعه فى سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠م) وسجنه بالقلعة ثم قتله بعد قليل.

وكان الصالح شخصية قوية تعيد إلى الأذهان شخصية جده العادل الأول وشخصية أبيه الكامل. وقد شهد عصر الصالح حدثين خطيرين:

شهد حركات المغول الأولى نحو الشرق الأدنى.

وشهد حملة لويس التاسع على مصر.

ويعنينا من أخبار الحدث الأول أن المغول كانوا حوالى ذلك الوقت قد اشتد خطرهم وقضوا على الدولة الخوارزمية بعد أن قاومتهم مقاومة عنيفة، وكان من نتائج القضاء على هذه الدولة أن شرد الجنود الخوارزميون. فتقدموا يعرضون خدماتهم الحربية على كل من يريد استخدامهم من ملوك الدول الإسلامية المجاورة، وقد اتصل بعض هؤلاء الخوارزمية بجيش الملك الصالح فى الشام ومصر. فأفاد من خدمتهم وخاصة فى الشام.

ففى ذلك الوقت وصلت إلى الشام إحدى الحملات الصليبية الصغرى - ومن رجالها سيمون دى منتفرات صاحب الأخبار الطوال فى تاريخ البرلمان الإنجليزى فى عصر هنرى الثالث ملك إنجلترا - فتقدم الملك الصالح ومعه هؤلاء الخوارزمية إلى بيت المقدس واستولى عليه فى سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٤م) وقد كانت بيد الصليبيين منذ المعاهدة بين الكامل وفردريك، واستعان الصالح بالخوارزمية كذلك فى نضاله مع ملوك الأيوبيين فى الشام.

وكان لسقوط بيت المقدس فى يد الصالح صدى قوى فى أوربا بشبه صدى سقوطها قديمًا فى يد صلاح الدين. فبدأت الدعوة لحرب صليبية جديدة قوية، وكان أكبر المتحمسين لها

الملك القديس لويس التاسع. وقد حاول لويس عند التمهيد للحملة أن يزيل ما بين البابا انوسنت الرابع والإمبراطور فردريك الثانى من خلاف، ولكنه لم ينجح. وقد دعا البابا فى نفس الجلسة التى أعلنت فيها الحملة الصليبية على مصر إلى حملة صليبية أخرى ضد فردريك باعتباره خارجًا على الكنيسة محرومًا منها. ولعل ذلك كان عاملاً من أهم العوامل التى أدت إلى توثيق علاقات الصداقة بين فردريك الثانى والملك الصالح نجم الدين أيوب، فأرسل فردريك فى السر رسولاً يحمل إلى الصالح أنباء خروج حملة لويس فى طريقها إلى مصر.

– ٢ –

الحملة الصليبية السابعة

بقيادة الملك لويس التاسع

باءت حملة (جان دى بريين) بالفشل، ولكن الصليبيين لم ينسوا مشروعهم الجديد الذى كان يهدف إلى الاستيلاء على مصر ليسهل عليهم تحقيق أملهم وهو امتلاك بيت المقدس وأراضى الشام جميعًا.

لهذا لم يكد يمضى على الحملة السابقة ثلاثون عامًا حتى أعدوا العدة للانقضاض على دمياط مرة ثالثة. ولم تأت الحملة هذه المرة من سواحل الشام، وإنما أتت من فرنسا. ففى ٢٥ أغسطس سنة ١٢٤٨م (٤ جمادى الأولى سنة ٦٤٦ هـ) أبحر من مياه فرنسا أسطول ضخم يزيد على ١٨٠٠ سفينة تحمل ثمانين ألف مقاتل ومعهم عدتهم وسلاحهم ومؤونتهم وخيولهم. وكان قائد هذه الحملة الملك القديس لويس التاسع ملك فرنسا.

ومرت هذه الحملة – فى طريقها إلى مصر – بجزيرة قبرص، فقضت بها بعض الوقت. وقد أخطأت فى هذا، لأنها لو اتخذت طريقها إلى مصر دون تلكأ لفاجأت الجيش المصرى قبل أن يستعد ويتخذ للحرب أهبته.

ثم أقلعت الحملة من قبرص، ودمياط قبلتها. ولكن رياحًا عاصفة اعترضتها فى طريقها، فاضطر عدد كبير من سفنها – نحو ٧٠٠ سفينة – إلى الانفصال والجنوح إلى شواطئ الشام.

وكانت علاقات الود والإخاء تربط بين ملوك الإيوبيين – منذ عهد الملك الكامل – وبين ملوك صقلية النورمانديين، ويقال إن ملك صقلية فى ذلك الوقت – الملك فردريك الثانى – أرسل أحد رجاله – متخفيًا فى زى تاجر – إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب – وكان مقيمًا فى الشام حينذاك – ليبلغه نبأ هذه الحملة كى يستعد لمقابلتها.

وكان الملك الصالح مريضًا مرضًا خطيرًا يعوقه عن ركوب فرسه، غير أنه انزعج لهذا الخبر، ولم يبال بآلام مرضه، وأمر أن يحمل فى محفة، وعاد مسرعًا إلى مصر، ونزل عند قرية أشموم طناح فى المحرم سنة ٦٤٧ هـ (أبريل سنة ١٢٤٩م) وأصدر أوامره فى الحال بالاستعداد. فشحنت دمياط بالأسلحة والأقوات والجنود، وبعث إلى نائبه بالقاهرة – الأمير حسام الدين بن أبى على – يأمره بإعداد سفن الأسطول. ففعل وأرسلها إلى دمياط شيئًا بعد شىء، ثم أرسل

الملك الصالح الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ على رأس جيش كبير ليعسكر فى البر الغربى لدمياط ليكون فى مقابلة الفرنج إذا قدموا.

هذه الحوادث الأولى وحوادث الحملة جميعًا تدل على أن المصريين أفادوا كل الفائدة من الحملة الماضية، كما تدل على أن الصليبيين لم يفيدوا شيئًا من أخطائهم فى الحملة السابقة فقد أدرك المصريون أن حملة جان دى بريين قد نزلت أول ما نزلت على الشاطئ الغربى لدمياط، ولذلك أمر الملك الصالح جيشه بأن يعسكر على هذا البر ليمنع نزول الصليبيين عليه، وقد كان السبب الأكبر فى فشل الحملة الأولى أنها نزلت على دمياط وأرادت الوصول إلى القاهرة بالسير بمحاذاة فرع دمياط، فاعترضتها المجارى المائية الكثيرة المتفرعة عن هذا الفرع، وكان يمكنهم أن يتفادوا هذا الفرع، وكان يمكنهم أن يتفادوا هذا الخطأ فى محاولتهم الثانية فينزلوا على الإسكندرية ولكنهم لم يفعلوا.

وفى الساعة الثانية من نهار الجمعة لتسع بقين من صفر سنة ٦٤٧هـ (يونيو ١٢٤٩م) وصلت سفن الفرنسيين إلى الشاطئ المصرى وأرست بازاء المسلمين، فراعهم كثرة الجيوش المصرية على الشاطئ، كما خطف بأبصارهم بريق أسلحة المسلمين، وعلا صهيل خيولهم وزادت جلبة جندهم، فأفزع الفرنسيين وهم لا يزالون فى سفنهم. يصف (جرانفيل) – مؤرخ الحملة وأحد قوادها – الرهبة التى ملكت على الفرنسيين أنفسهم عند رؤية الجيش المصرى فيقول: «وصل الملك أمام دمياط، ووجدنا هناك كل جيوش السلطان تقف على الشاطئ: كتائب جميلة تسر الناظرين، ذلك أن أسلحة السلطان صنعت من ذهب فكانت الشمس تشرق على هذه الأسلحة فتزيدها بريقا ولمعانا، وكانت الجلبة التى يأتون بصنوجهم وأبواقهم الشرقية تدخل الرعب فى أفئدة السامعين».

وفى اليوم التالى استطاع الفرنسيون أن ينزلوا الجند إلى البر – بعيدًا عن معسكر المصريين – وبدأت المناوشات بين الجيشين.

وهكذا بدأت المعركة: الجيش المصرى كبير العدد وافر العدة – كما وصفه الفرنسيون أنفسهم– ودمياط على الشاطئ الشرقى مدينة مسورة حصينة قوية قد شحنت بالجند والأقوات والأسلحة، لأن السلطان لم ينس أن هزيمتها السابقة إنما كان سببها انعدام الأقوات بعد طول الحصار. فلو أن الأمور سارت سيرًا طبيعيًا لاستطاع المصريون أن يهزموا هذه الحملة – رغم قوتها وكثرة جندها – ويردوها عن مصر فى يسر وسهولة. ولكن الحوادث تطورت تطورا آخر.

فكما أن مؤامرة ابن المشطوب كادت تنزل الهزيمة بالجيش المصرى وتوقع الفرقة والاضطراب بين جنوده فى عهد الكامل، كذلك جد فى حوادث هذه الحملة حادث خطير كاد ينتهى بها إلى نفس النتيجة.

كان السلطان الملك الصالح نجم الدين مريضًا - كما ذكرنا - ومقيمًا فى أشموم طناح، وقد اشتد به المرض حتى أصبح على شفا حفرة من الموت، فلما وصلت السفن الفرنسية إلى شاطئ دمياط أطلق الأمير فخر الدين الحمام الزاجل يحمل النبأ إلى السلطان، وتعددت رسائله دون أن يلتقى ردًا، فأدرك أن السلطان قد مات، فانتظر حتى وافى الليل وانسحب بجيشه كله من الشاطئ الغربى إلى دمياط، ثم تركها وسار جنوبًا متجهًا إلى معسكر السلطان عند أشموم طناح، وأعمته العجلة فلم يحطم الجسر الذى كان يصل بين الشاطئين الشرقى والغربى فتركه كما هو.

ونظر أهالى دمياط فوجدوا الجيش الذى أتى لحمايتهم قد غادر المدينة، فخافوا على أرواحهم وخرجوا فى الليل تاركين مدينتهم وأموالهم وديارهم «ولحقوا بالعسكر فى أشموم طناح وهم حفاة عرايًا، جياع حيارى، بمن معهم من النساء والأولاد، وفروا هاربين إلى القاهرة، فأخذ منهم قطاع الطرق ما عليهم من الثياب وتركوهم عرايا».

ومع أن السلطان كان فى أشد حالات المرض، فقد غضب على فخر الدين ومن كان معه من القواد غضبًا شديدًا، وأنبه على فعلته، وأمر بشنق خمسين أميرًا من أمراء الكنانية الذين كانوا يتولون الدفاع عن المدينة، وكاد يأمر بقتل فخر الدين نفسه، غير أن الوقت كان حرجًا، فكتم غيظه إلى أن تنكشف الغمة.

وأصبح الفرنسيون فوجدوا معسكر المصريين خلاء فظنوها مكيدة، فأرسلوا كشافتهم يستطلعون، ولشد ما كانت دهشتهم عندما وجدوا الجسر قائمًا والمدينة خالية تمامًا من الجنود والأهلين، فعبر الجيش الفرنسى إليها واستولى عليها دون عناء، وفرح بها الفرح كله، فقد كانت مشحونة - كما ذكرنا - بالعتاد والمؤونة.

كان الملك لويس يستطيع أن يتقدم فى هذه اللحظة نحو الجنوب قبل أن يفيق المصريون من الارتباك الذى حل بهم، ولو أنه اتبع هذه الخطة لكتب له النصر، غير أنه تلكأ فى دمياط مدة تقرب من الستة شهور ينتظر وصول بقية سفنه التى جنحت بها الريح نحو شواطئ سوريا، هذه المدة كانت كافية تمامًا لأن يتم فيها المصريون استعدادهم ويستعيدوا نشاطهم ويجمعوا صفوفهم.

ولما وصلت السفن الشاردة، دعا الملك لويس التاسع قواده للتشاور ولاختيار الطريق الذى يسلكونه، أيتجهون نحو الإسكندرية أم يسيرون قدمًا إلى القاهرة؟ وأشار الكونت بيتر البريطانى (Peter) ومعظم قواد الجيش بالمسير إلى الإسكندرية والاستيلاء عليها أولاً. وكانت حجتهم معقولة وصحيحة من الناحية الحربية، وتتلخص فى أن الإسكندرية كميناء تفضل دمياط فى كثير، فهى أصلح لإيواء سفنهم، وإليها يستطيع أسطولهم أن يصل بالميرة من بلادهم فى وقت قصير وجهد قليل.

غير أن الكولت أرتوا (Aetoi) - أخو الملك لويس - عارض هذا الرأى ونصح الملك بالاتجاه مباشرة نحو القاهرة للاستيلاء عليها، وحجته فى ذلك أن القاهرة هى عاصمة الديار المصرية كلها، فالاستيلاء عليها يستتبع حتما الاستيلاء على مصر كلها، وأضاف إلى هذا قوله: «إذا أنت أردت قتل الأفعى فاضربها على رأسها». واحتدم النقاش، وانتهى بإعراض الملك عن رأى قواده، وأخذه برأى أخيه، وتقرر بذلك مسير الجيش الفرنسى جنوبًا نحو القاهرة، فكان هذا القرار حلقة جديدة فى سلسلة الأخطاء التى انتهت بفشل الحملة.

أما المعسكر المصرى فقد اضطرب اضطرابًا شديدًا لانسحاب حامية دمياط وفرار أهلها ووقوعها فى يد العدو، وكان السلطان الملك الصالح معسكرًا بأشموم طناح والمرض يشتد به يومًا بعد يوم، ولكنه مع هذا لم يفقد شجاعته، بل قرر أن يتراجع مع جيشه جنوبًا إلى مدينة المنصورة لأنها تمتاز بموقع حصين، فالنيل يحميها غربًا، وبحر أشموم طناح يفصل بينها وبين قوى الفرنسيين فى الشمال. وبدأ الجند المصريون فى تحصين المنصورة، فأصلحوا السور الذى كان يحيط بها وستروه بالستائر، «وقدمت الشوانى المصرية بالعدد الكاملة والرجالة، وجاءت الغزاة والرجال من عوام الناس الذين يريدون الجهاد من كل النواحى، ووصلت عربان كثيرة جدا، وأخذوا فى الغارة على الفرنج ومناوشتهم» وأخذ هؤلاء المجاهدين والعربان يهاجمون معسكرات الفرنسيين حتى أقضوا مضاجعهم، فلم يكن يمر يوم دون أن يعودوا بعدد من الأسرى.

وفى ليلة الاثنين النصف من شعبان سنة ٦٤٧هـ (٢٢ نوفمبر سنة ١٢٤٩) مات السلطان الملك الصالح فكانت الطامة الكبرى، لأن الجند لو علموا بموته لتفرق شملهم وضعفت روحهم المعنوية، ولكن القدر هيأ لمصر فى تلك الساعة العصيبة امرأة حازمة مدبرة هى شجر الدر زوجة الملك الصالح، فقد أخفت عن الجميع خبر موت السلطان، وأمرت بحمل جثته سرا فى حراقة إلى قلعة الروضة، وعهدت للأمير فخر الدين بقيادة الجيش، وكان الأطباء يدخلون كالعادة إلى حجرة السلطان كل يوم وكأنهم يعودونه، كما كانت الأوراق الرسمية تدخل إلى نفس الغرفة وتخرج ممهورة بإمضاء السلطان وعلامته بخط يشبه خطه كل الشبه.

وأرسلت الرسل إلى الملك المعظم تورانشاه بن الصالح - وكان مقيمًا فى حصن كيفا - لاستدعائه إلى مصر، وبهذه الإجراءات السريعة الحكيمة أنقذت مصر من أزمتها وسارت الأمور سيرًا طبيعيًا.

ووصلت أخبار موت السلطان - رغم كتمانها - إلى الفرنسيين فى دمياط، فانتهزوا الفرصة وبدأوا زحفهم نحو الجنوب حتى وصلوا إلى المنصورة، فعسكروا شمال بحر أشموم طناح، وأصبح هذا البحر حاجزًا بين معسكرهم ومعسكر المسلمين، وبدأ كل من الفريقين يستعد للمعركة الحاسمة.

أما الفرنج فقد بدأوا يحصنون معسكرهم، فحفروا حوله - كعادتهم - خندقًا، وأقاموا سورًا وستروه بالستائر، ونصبوا المجانيق، وأتت شوانيهم فوقفت بإزائهم في النيل. وأما المصريون فكانوا مطمئنين إلى مدينتهم وحصانة موقعهم، فأخذوا يناوشون الفرنج ويتحيلون في اختطافهم وأسرهم، وكانوا يفتنون في مناوشاتهم ويأتون فيها بكل طريف، وقد روى بعض المؤرخين أن جنديًا مصريًا قور بطيخة وحملها على رأسه وغطس في الماء حتى حاذى الفرنج، فظنه بعضهم بطيخة ونزل لأخذها، فشطره المصرى بسيفه وحمله إلى معسكر المسلمين.

رأى ملك الفرنسيين أنه لا يستطيع الغلبة على المصريين إلا إذا التحم معهم في معركة، ولا سبيل إلى هذا وبحر أشموم يفصل بينه وبينهم، ففكر في بناء جسر على هذا البحر ليعبر عليه جنوده إلى البحر الآخر، وصدرت الأوامر بإقامة هذا الجسر، ولكن الفرنسيين لم يكادوا يتمون بضعة أمتار من الجسر حتى تساقط عليهم وابل من قذائف المسلمين ردهم على أعقابهم، فرأى الملك أن يبنى برجين زودهما بالقذائف والقاذفين لحماية العمال الذين يعملون في البحر، وعاد الفرنج إلى عملهم يبغون إتمام الجسر للعبور عليه، ولكن المسلمين استطاعوا بمهارتهم الحربية وخطتهم الموفقة أن يفسدوا على أعدائهم عملهم، فكان الفرنج كلما أتموا من جسرهم مترا هدم المسلمون أمتارا أمامه في شاطئهم المقابل، فاتسع المجرى من جديد، يقول جوانفيل - مؤرخ الحملة وأحد فرسانها: «فكانوا يفسدون علينا في يوم واحد ما كنا ننجزه في أسابيع ثلاثة».

وإلى هذا كله استعد المصريون بمجانيقهم ومقاليعهم فكانوا يمطرون الفرنسيين وأبراجهم بقذائف من النار اليونانية التى أنزلت الرعب في أفئدتهم ونالت من شجاعتهم كل منال، وليس أروع من وصف جوانفيل لهذا الذعر الذى استولى على الفرنسيين أمام هذا السلاح الخطير حين يقول:

«وقال ولتردى كوريل: أيها السادة نحن في خطر داهم لأن العدو لو صوب النار نحو أبراجنا وبقينا نحن في أماكننا لأتانا الموت من كل مكان، ولو أننا غادرنا مراكزنا التى استولينا عليها للحقنا العار، فلا منقذ لنا من هذا الخطر الداهم إلا الله.. فنصيحتى إليكم أن نخر سجدًا - كلما صوبوا هذه النار نحونا - لنبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن ينجينا من هذا الخطر».

ولم يكن الملك لويس نفسه أقل جزعًا من رجاله، يقول جوانفيل واصفًا الرعب الذى استحوذ على الملك: «وكانت النار ترسل في انطلاقها الأضواء الباهرة التى تملأ رحاب المعسكر فيبدو وكأننا في وضح النهار، ولقد صوب العدو النار نحونا هذه الليلة ثلاث مرات، كما أطلقوها من قسيهم أربع مرات، وكان الملك القديس كلما سمع أن النار الإغريقية قد صوبت نحونا انتصب

واقفًا على سريره ورفع يديه إلى السماء وابتدأ الصلاة وعيونه مخضلة بالدموع وهو يقول: أيها الإله الطيب احفظ لى شعبى».

يتضح من هذه الحوادث والأقوال أن الغلبة كانت للمصريين فى أول المعركة، ولو سارت الأمور سيرًا طبيعيًا لتم لهم النصر النهائى، ولكن خائنًا من البدو دل الفرنسيين فى ذلك الحين على مخاضة فى بحر أشموم، يستطيع الفرسان عبورها على خيولهم، نظير مبلغ من المال.

وفرح الفرنسيون بهذا الكشف، ووضع الملك لويس خطة جديدة للمعركة، وتتلخص هذه الخطة فى أن يعبر الكونت أرتوا بفرقة الفرسان من هذه المخاضة، فإذا وصل إلى الشاطئ الذى يعسكر فيه المسلمون اشتبك معهم فى قتال مؤقت ليشغلهم عن مهاجمة الفرنسيين الذين يقيمون الجسر إلى أن يتموه، فإذا تم بناء الجسر عبر عليه لويس ببقية جيشه وانضم إلى فرسان الكونت أرتوا، وانقضوا جميعًا على جيش المسلمين.

كانت الخطة كما ترى محكمة وخطيرة، ولو أنها نفذت كما وضعت لقضى الفرنسيون على الجيش المصرى قضاء مبرمًا، ولكن تهور أرتوا كان السبب فى فشلها.

عبر أرتوا بفرسانه هذه المخاضة فى الرابع أو الخامس من ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ (فبراير سنة ١٢٥٠م)، وانقض على معسكر المسلمين فجأة فشتت شملهم، لأنهم لم يكونوا مستعدين للقتال، إذ لم يخطر على بالهم أن يهاجموا من هذه الناحية، وكان قائد الجيش الأمير فخر الدين فى الحمام عند ما علم بهجوم الفرنج على معسكره، فخرج مشدوها، وركب فرسه دون أن يتخذ للدفاع عدته، فدهمه فرسان الفرنج، فتفرق عنه جنده، وتكاثرت عليه الرماح والسيوف حتى خر صريعًا، وانقلبت بهذا هزيمة الفرنسيين إلى نصر باهر، وفرح أرتوا بهذا النصر السريع، وملكه حماس الشباب فلم يقف عند نهاية الجسر لحماية العاملين فيه -- كما أمره أخوه – وإنما اندفع بفرسانه إلى المنصورة، ودخلها، وتقدم حتى وصل إلى قصر السلطان بها.

وكاد النصر النهائى يتم للفرنسيين لولا أن صمدت لهم فرقة المماليك بقيادة ركن الدين بيبرس، وحملت على الفرنسيين حملة عنيفة حتى ردتهم عن القصر، فلما فروا راجعين تعقبتهم بالسيوف والدبابيس، وأقام الأهالى المتاريس فى الطرقات، واشتبك الفريقان فى قتال عنيف فى شوارع المدينة وأزقتها، واتخذ السكان حصونًا من منازلهم يلقون من نوافذها بالقذائف والحجارة على الفرنسيين، وانتهت المعركة أخيرًا بالقضاء على فرقة الفرسان قضاء مبرمًا، وكان فى مقدمة الضحايا الكونت أرتوا قائدها.

وكان الفرنسيون – أثناء هذه المعركة – يجدون ويبذلون كل الجهد لإتمام الجسر حتى يتمكنوا من العبور عليه والانضمام إلى فرسانهم، ولكنهم لم يكادوا يشرفون على إتمامه حتى

وصلتهم أخبار الهزيمة التى نزلت بجنودهم، فنال هذا الخبر من شجاعتهم وفقدوا قوتهم المعنوية، فكانوا يلقون بأنفسهم إلى النيل يبغون العودة إلى معسكرهم. وبهذه الهزيمة عاد الفريقان إلى ما كانا عليه، كل منهما على شاطئ، والبحر الصغير يفصل بينهما.

وبعد أيام قليلة وصل الملك المعظم تورانشاه إلى مصر، واستقر فى قصر السلطنة بالمنصورة يوم الثلاثاء تاسع عشر ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ (فبراير سنة ١٢٥٠م)، وفرح المصريون بسلطانهم الجديد، وبدأوا يستعيدون ثقتهم بأنفسهم.

ولجأ تورانشاه إلى الحيلة التى سبق أن لجأ إليها المصريون فى عهد جده الملك الكامل عندما نزلت بنفس المكان جيوش جان دى بريين. فأمر بأن تصنع سفن بالمنصورة، وحملت هذه السفن مفصلة على الجمال إلى بحر المحلة حيث أعيد تركيبها، وملئت بالمحاربين وسارت شمالاً، فلما وفدت سفن الفرنج تحمل الميرة من دمياط خرجت عليها هذه السفن «فأخذت مراكب الفرنج أخذا وبيلا - وكانت اثنين وخمسين مركبًا - وقتل وأسر نحو ألف أفرنجى، وغنم سائر ما فيها من الأزواد والأقوات، وحملت الأسرى إلى المعسكر، فانقطع المدد من دمياط عن الأفرنج، ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا يقدرون على الذهاب».

واشتدت الضائقة بالفرنسيين لانقطاع الميرة من دمياط، فأرسل الملك لويس إلى السلطان يطلب الصلح، ويعرض عليه أن يتنازل عن دمياط مقابل بيت المقدس، ولكن السلطان رفض هذا الطلب. فلم يجد لويس بدأ من الاستمرار فى المقاومة حتى يستطيع إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فأشعل النار فى أسلحته وعتاده ورحل بجيشه - ليلة الأربعاء لثلاث مضين من المحرم سنة ٦٤٨ هـ (إبريل سنة ١٢٥٠م) - متوجها إلى دمياط ولم يكد يصل إلى فارسكور حتى كانت جيوش المصريين قد لحقت به، وانقضت على جيشه انقضاض الصاعقة فقضت على معظمه، حتى قيل إن من قتل من فرسان الفرنسيين كان أكثر من عشرة آلاف، كما أسر من الخيالة والرجالة والصناع ما يناهز مائة ألف، وارتقى الملك لويس وأمراء جيشه تلاً هناك، وسألوا الأمان فأمنوا، وأسر لويس وقواده، وحمل إلى المنصورة حيث سجن بدار ابن لقمان التى لا تزال بقاياها قائمة حتى اليوم، ووكل بحراسته الطواشى صبيح.

ولم يكن المعظم تورانشاه كأبيه ثباتًا واتزانًا وحكمة، بل كان شابًا أهوج، فلم يقدر لزوجة أبيه شجر الدر تدبيرها ولا للمماليك البحرية جهدهم، بل أخذ يهدد شجر الدر ويطالبها بمال أبيه، كما أبعد مماليك أبيه، وقرب إليه حاشيته التى وصلت معه من كيفا، وصار إذا سكر جمع الشمع وضرب رؤوسها بسيفه حتى تتقطع ويقول: «هكذا أفعل بالبحرية»، فتآمر عليه هؤلاء البحرية، واقتحموا عليه البرج الخشبى الذى كان يقيم به فى فارسكور، فأدرك الشر فى عيونهم، وصعد إلى أعلا البرج، فرموه بالنشاب، وأطلقوا النار فى البرج،فألقى بنفسه من أعلا

وجرى نحو النيل، فلحقوا به وقتلوه، وكان ذلك فى التاسع والعشرين من المحرم سنة ٦٤٨ هـ (مايو ١٢٥٠م).

وهكذا كاد المصريون يفقدون بهذه الفعلة النصر الباهر الذى أحرزوه ولم يمض عليه غير خمسة وعشرين يوما، ولكن المماليك سرعان ما تداركوا الموقف، فأجمعوا على إقامة شجر الدر ملكة على مصر، فكان حدثا فذا فى تاريخ العالم الإسلامى كله، كما عينوا الأمير عز الدين أيبك قائدًا أعلى للجيش.

وبدأت المفاوضات بين الملك لويس وبين المصريين، وتولاها عنهم الأمير حسام الدين بن أبى على - نائب السلطنة فى عهد الملك الصالح - وتم الاتفاق أخيرا على إطلاق سراح الملك وجميع الأسرى على أن يخلوا دمياط، وأن يدفعوا مبلغ ألف دينار فدية للملك، يدفعوا نصفها قبل أن يطلق سراحه والنصف الآخر بعد وصولهم إلى عكا. وجمعت الملكة - وكانت مقيمة فى دمياط - نصف المبلغ المطلوب، فأطلق المصريون سراح الملك، ودخل المسلمون ثانية إلى دمياط، ورفعوا عليها العلم المصرى يوم الجمعة الثالث من صفر، بعد أن ظلت فى أيدى الفرنج أحد عشر شهرًا وتسعة أيام.

وهكذا أقلعت فلول الحملة إلى عكا بعد أن ودعها شاعر مصر جمال الدين بن مطروح بقصيدته المشهورة التى يقول فيها:

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال نصح عن قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى ... من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغى ملكها ... تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفا لا يرى منهم ... إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لأمثالها ... لعل عيسى منكم يستريح
إن كان بابكم بذا راضيا ... فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أضمروا عودة ... لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشى صبيح